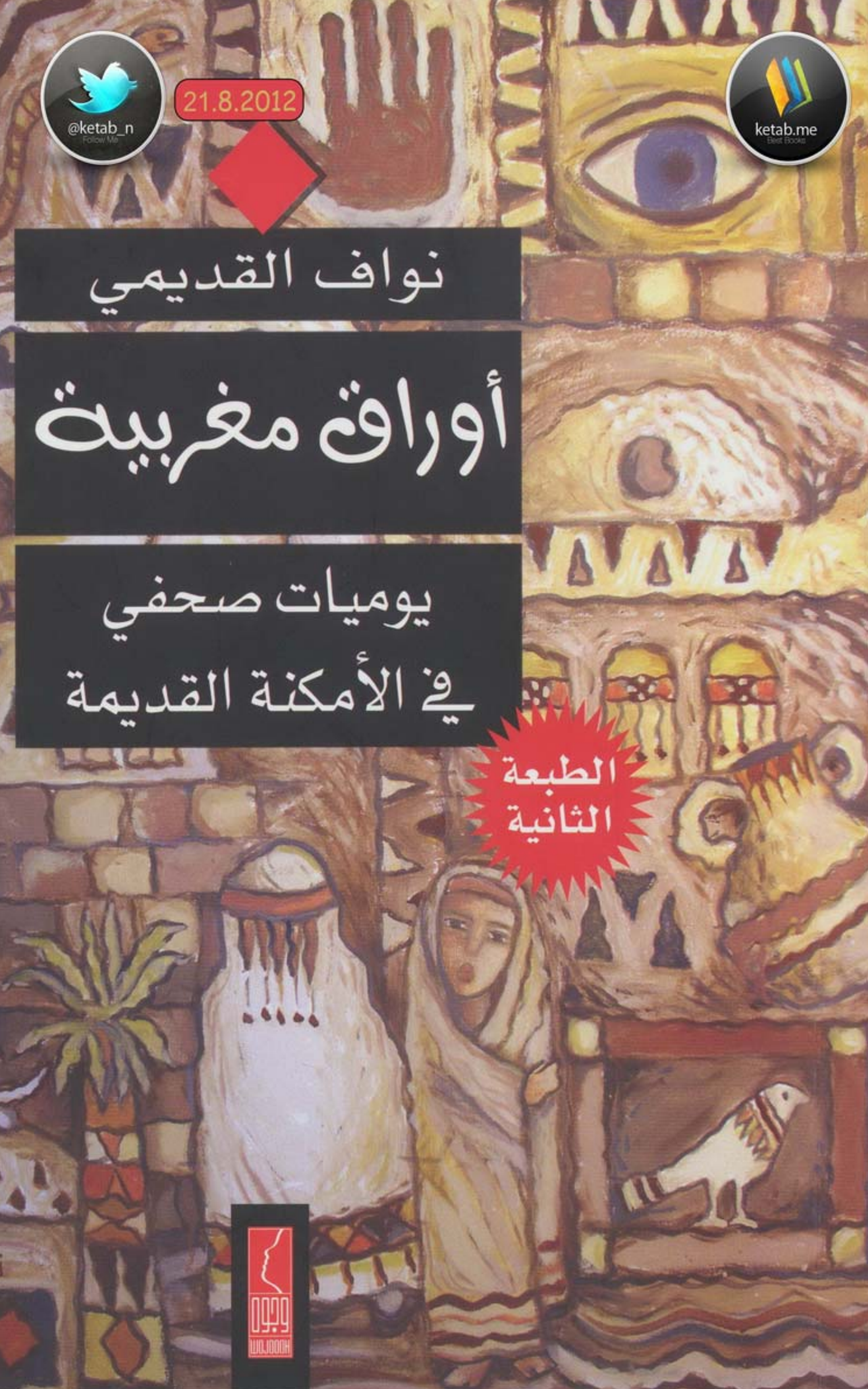


@ketab_n
Follow Me
21.8.2012
ketab.me
Best Books
نواف القديمي
أوراق مغربية
يوميات صحفي
في الأمكنة القديمة
الطبعة
الثانية
وجوه
WOJOOH



نواف القديمي

أوراق مغربيّة

يوميات صحفي في الأمكنة القديمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نواف القديمي

أوراق مغربيّة

يوميات صحفي في الأمكنة القديمة

أوراق مغربية

يوميات صحفي في الأمكنة القديمة

نواف القديمي

الطبعة الأولى
منشورات 2010 - 1431

رؤية وتصميم الغلاف
وجوه للإعلام والنشر
رسومات داخلية:
عوض الرضي

ناشرون
دار وجوه للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية الرياض
ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108
www.wojoooh.com

للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٥٨٢٤
ردمك: ٥-٣٣١٩-٠٠-٦٠٣-٩٨٧

مدخل،،

بدأت أخشى أن أدمن كتابة اليوميات، وأن أتحول إلى ثرثار لا يمل من رواية كل ما يمرّ عليه من تجارب وقصص وحوارات وحكايات لا يفتأ يعيشها في ثنايا أيامه المُتتابعة.. لكن المشكلة تكمن في أنني أشعر بمُتعة استثنائية حين أدوّن شيئاً من تفاصيل الحياة المُثيرة.. ولا أظنني أرغب في التخلي عن هذا الإدمان الكتابي اللذيذ.. أيضاً لأنني عندما أكتب تلك التفاصيل، فأنا أسعى لالتقطها قبل أن يلتهمها غول النسيان، ثم أقوم ببروزتها وتعليقها على الحائط الزمني الممتد لحياتنا القصيرة.

في رحلتي هذه إلى المغرب وتونس لم أكن أدوّن يومياتي بقصد النشر، رغم التجربة المفيدة والمثيرة التي عشتها في هذه الزيارة.. والسبب في ذلك يرجع إلى أنني كنت أنوي بعد عودتي من هذه الرحلة بقرابة الشهرين أن أقوم برحلة أخرى إلى إيران، وذلك قبل انتخاباتها الرئاسية الأخيرة بأسبوع، بحيث أقضي فيها أسبوعاً قبل الانتخابات، وأسبوعين آخرين بعده، أزور فيها عدداً من المدن الإيرانية الشهيرة، وألتقي عدداً من الشخصيات الدينية والسياسية والثقافية، وكنت أنوي أن أسجل يوميات هذه الرحلة بشكل ملائم للنشر.. ولهذا السبب لم أكن أرغب في أن أنشر كتابين اثنين عن رحلتين قمت بهما في زمن مُتقارب.

لكن المفاجأة التي واجهت مشروع زيارتي لإيران كانت غير مُتوقعة.. فقبل شهر من الموعد المُفترض لتلك الزيارة قمت بالاتصال بالسفارة الإيرانية في الرياض، وسألتهم عن إمكانية استخراج (فيزا)، فأخبرني موظف السفارة أن الأمر لا يستغرق أكثر من يوم واحد.. وعندما قَدِمت إلى السفارة، وقدّمت أوراقي الثبوتية، وأتممت تعبئة النماذج الورقية المطلوبة، قال لي الموظف وهو يرمقني شزراً أن الرد على طلبي سيكون بعد ثلاثة أيام!، وحين أصررت على معرفة سبب تمديد المدة من (يوم واحد) إلى (ثلاثة أيام)، أجابني بأن مدة اليوم الواحد مخصصة لاستخراج الفيزا الخاصة بزوّار العتبات المقدسة. أما الزيارات الأخرى فتحتاج إلى موافقة وزارة الخارجية!

وفي الموعد المُحدد بعد ثلاثة أيام اتصلت بالسفارة للسؤال، فأجابني الموظف أن الرد لم يأتِ بعد، وبتُّ بعدها أتصل بشكل يومي للمتابعة، وكان يصلني ذات الرد.

ومرت الأيام، حتى اتصلت على السفارة في اليوم العاشر، فأخبرني الموظف أن رد وزارة الخارجية قد وصل، ولكنه كان سلبياً، حيث رفضوا منحي فيزا للدخول!! وقد زاد على ذلك بأن أخبرني بمعلومات شخصية عني لم أذكرها لهم سابقاً!! وعندما ألححت عليه بالسؤال عن السبب، وعن إمكانية استخراج فيزا في وقت آخر - غير وقت الانتخابات - أو أن أقوم باستخراجها من سفارة إيران في بيروت التي كنت أنوي زيارتها قريباً، أجابني الموظف بوضوح: لن تستطيع استخراج فيزا من أي مكان آخر وفي أي توقيت، لأنك موضوعٌ على قوائم الممنوعين من دخول إيران!!

ومع مفاجأتي بهذا الرد ، حاولت أن أعرف من الموظف شيئاً من أسباب هذا المنع !، فأخبرني أنه لا يملك أي معلومات بهذا الخصوص، وأن عليّ أن أوكل الأمر إلى أحد في طهران كي يتصل بوزارة الخارجية ويستفسر عن الأسباب.. ولأنني لا أعرف أحداً هناك، قررت أن أطوي - مؤقتاً - صفحة زيارة إيران، وأن أعود إلى فكرة نشر يومياتي في المغرب وتونس.

زيارتي إلى المغرب كانت الأولى بالنسبة لي، ورغم أنني لم أكن أشعر بكثير من الحماس لتلك الزيارة، إلا أنه كان يُغالب هذا الشعور شغفٌ ذهني لمعرفة كثير من تفاصيل الحالة الاجتماعية والثقافية والسياسية في المغرب، غير تلك التي نتابعها في وسائل الإعلام أو من خلال الكتب والدراسات، التي لا تكفي بالطبع لرسم مشهد دقيق وتفصيلي لطبيعة الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في المغرب.. أما تونس، فقد زرتها مرتين من قبل، أولاهما حين كنت صغيراً في سني دراسي الابتدائية، والثانية كانت قبل عامين.

حاولت في هذه اليوميات أن أرسم شيئاً من ملامح المشهد الثقافي والسياسي في هاتين الدولتين ، وأن أشير إلى صفحات من دفاتر الحالة الإسلامية فيهما ، وأن أدوّن نزراً من التاريخ ، وبعضاً من الجغرافيا ، ولقطاتٍ من شريط حياة الإنسان المُنهك والبسيط ، ودواخله المثقلة بكثيرٍ من البؤس ، وقليلٍ من الأمل.

نواف القديمي
nawafaj76@yahoo.com

أوراق مغربيّة

الليلة الأولى..
تيه في الدار البيضاء



1

لم أجد تفسيراً واضحاً لعدم حرصي على زيارة المغرب، رغم أن ظروف عمل عديدة استدعت زيارتي لها منذ عام.. إلا أنني كنتُ أؤجل هذه الزيارة، مُتحججاً كل مرةٍ بعذر مختلف.

هذه المرة تزامنت حاجة العمل المؤجلة، مع دعوة كريمة من منظمة حقوقية مغربية لتقديم ورقة بحثية في مؤتمرٍ يُقام بالدار البيضاء.. فقررت المُشاركة.

أول ما دخلت إلى الصالة الداخلية في مطار الملك خالد بالرياض لانتظار ركوب الطائرة المتجهة إلى الدار البيضاء، وكان ذلك في حدود الساعة الرابعة من فجر الخميس ٢٣ إبريل ٢٠٠٩م، شدتني وجوه بعض الركاب المرافقين لي على نفس الرحلة.

تعرفون تلك الوجوه المتوجسة والقلقة، التي يبدو واضحاً من عيونها المتهدلة أنها (شريييبة) حتى الحبل الشوكي!.. كان أولئك هم زملائي في هذه الرحلة الطويلة.. أي تستطيعون القول أنني كنتُ برفقة مجموعة من رواد العالم السُفلي المحترمين.

قبل ركوبنا الطائرة بدقائق اكتشفت أن رحلتنا ستمر عبر القاهرة!! رغم التأكيد السابق للخطوط المغربية أن الرحلة تتجه مباشرة من الرياض إلى الدار البيضاء!

وبعد ساعتين من الطيران توقفنا في القاهرة لمدة ساعة تقريباً، وركب معنا بعض المُسافرين الجدد.. وبعد قليل دخل أربعة أو خمسة ركاب يحملون أجهزة تصوير وعدة حقائب و(عاملين زحمة!) في مشهد يوحي بأن معهم رجلاً مهماً!. وإذ بهذا (الرجل المُهم!) يتجه للجلوس في المقعد الفارغ بقربي. عندما اقترب نظرت إليه، وإذ به أحد المُطربين الشباب المشهورين، من أولئك الذين باتوا يظهرون في التلفزيون أكثر من مُذيعي الأخبار.

توقف هذا المطرب قليلاً قرب مقعده، وبدأ ينظر بشزر إلى أحد مرافقيه، وكأنه يقول له: (ليه المقاعد مش جنب بعض يابن الـ....).. عندها قلت له مباشرة: (عاوز تبدل المقاعد)؟.. قال لي وقد رسم على وجهه ابتسامة رجاء: (ياريت).. قمت من مقعدي وتوجهت للجلوس في مقعد آخر اكتشفت - بعد فوات الأوان - أنه بجانب مصارع ضخم!.. وفي المقابل جلس بجانب المطرب الكبير أحد مرافقيه، كي يسهر على خدمة سعادته وتلبية رغباته.

لزيارتي إلى المغرب هدفان رئيسيان.. الأول: هو حضور المؤتمر أو الندوة - يسمونه يوم دراسي - التي يُنظمها منتدى الكرامة لحقوق الإنسان بالمغرب، والذي يُعد أهم واجهة حقوقية للإسلاميين في المغرب، وذلك بالتعاون مع منظمة باكس كريستي إنترناشيونال، وهي منظمة حقوقية دولية لها فروع في دول عدة، حيث يرعى الفرع الهولندي هذه الندوة. وموضوعها هو (المقاربة التصالحية ودورها في معالجة إشكالية الإرهاب، "تجارب عربية") وسيكون الحديث فيها عن تجارب السعودية ومصر ولبنان إضافة إلى المغرب في الحوار والمصالحة مع الجماعات الجهادية.

الهدف الثاني: هو الالتقاء بعدد من الباحثين والمؤلفين وذلك لفتح مجالات تعاون مستقبلي في مجال النشر.

بالنسبة لي قضيت الربع الأول من الرحلة في النوم، وما تبقى من الوقت أمضيته في كتابة الورقة التي سأقدمها في الندوة، وكنتُ قد وضعت عناصرها ولم يتبقَّ لي سوى الصياغة.

وساعة وصلنا إلى مطار الدار البيضاء، واستلمت حقائبي الثقيلة الممتلئة بالكتب ـ لكوني أخذت معي مجموعة كتب أنوي إهداءها لبعض الباحثين الذين سألتقيهم ـ لم أكن أفكّر في موضوع التفتيش على الإطلاق.. وعندما وصلت إلى نقطة التفتيش وعرف الضابط أن حقائبي تحتوي على بعض الكتب، قال لي مباشرة: ممنوع إدخال الكتب دون رخصة من وزارة الثقافة!، ونادى على ضابط آخر، وطلب منه أن يستلم الحقائب ويرسلها إلى مكتب الجمارك.

بصراحة فوجئتُ بهذا الأمر، خاصة أنهم منعوا في الوقت نفسه دخول أجهزة بسيطة، كاميرات، مسجلات صوتية....الخ. (المطرب الكبير حاول أن يقنع موظفي الرقابة بقوله لهم أنه "مطرب معروف"، لذا يجب أن تكون برفقته "كاميرا الفيديو بتاعته".. إلا أن موظفي الأمن لم يعيروه أي اهتمام!).

في السعودية اليوم لا يكادون يمنعون أي كمية كتب تقدم بها إلى المطار، ولو كنت تحملها في (كراتين كبيرة).. فكيف يتم مثل هذا في (المغرب)، بلد التعددية الحزبية والعمل السياسي المفتوح؟!.. وإذا كانت الرقابة في المغرب بهذا الشكل، فكيف ستكون الرقابة مثلاً في كوريا الشمالية!!

في مكتب الجمارك أشار موظف الرقابة إلى إحدى الحقائب، وطلب مني أن أُخرج جميع ما في هذه الحقيبة من كتب.. هنا تنبهتُ إلى أمر مهم. هو أن هذا الموظف أشار فقط إلى الحقيبة الصغيرة التي قام الضابط الأول بتفحصها كي يرى نوعية الكتب التي أحملها. وهذا يعني أن موظف الرقابة ظن أن الكتب موجودة فقط في هذه الحقيبة، وليس في جميع الحقائب الثلاث.. حينها تنهدت ورجوت الله ألا ينتبه لباقي الحقائب، وقمت بوضع الحقيبة التي أشار إليها الموظف على طاولة التفتيش، ثم قمت بدفع العربة التي تحوي حقيبتيّ الأخريين بعيداً عن الأنظار.. ثم دخلت معهم في مفاوضات بشأن الكتب الموجودة في الحقيبة الصغيرة.. قالوا لي مرة أخرى: ممنوع إدخال أي كتاب دون رخصة من وزارة الثقافة! وهنا بدأت المحاولات: يا جماعة الخير، يا الطيبين، يا أهل المروءة، ليس معقولاً أن دخول أي كتاب بحاجة إلى موافقة مُسبقة!!، نحن (يا أوادم) في عصر الإنترنت ولا قيمة للرقابة.

من رحمة الله بي أن حوت هذه الحقيبة الصغيرة بعض النسخ من كتابيّ (الإسلاميون سجال الهوية والنهضة) و (أشواق الحرية)، وكلاهما صادران عن (المركز الثقافي العربي) الذي تُعد مدينة الدار البيضاء مقره الرئيس.. قلت لهم: هذه كتب صادرة من المغرب ـ وأريتهم العناوين على الكتاب ـ فكيف تريدون منعها من الدخول وهي صادرة من الداخل؟! بعد قليل هداهم الله وقالوا: خلاص أدخل هذين الكتابين.. أيضاً كان في الحقيبة نسخ من كتاب الجابري الذي أصدرته الشبكة العربيّة، قلت لهم: وهذه كتب للجابري، فكيف تمنعونها من الدخول؟، رد علي الموظف: ومن يكون هذا الجابري؟!. قلت له: هذا مفكر مغربي معروف، وعلاقته جيدة بالدولة ـ المعلومة الأخيرة يمكن اعتبارها "بكش أبيض" لأغراض ثقافية محضة، عندها قام موظف الرقابة بسؤال موظف آخر أرفع منه رتبة عن الجابري، فقال له: أدخل كتب الجابري فلا مشكلة بها.

خلاصة الأمر أن مفاوضات الحل النهائي توقفت عند بعض النسخ من كتاب واحد.. وبعد أخذ ورد، وبعدما ضجروا من إلحاحي، قال لهم الضابط الكبير: (خلاص، أدخلوا باقي الكتب وخلصونا). وضعت الحقيبة الصغيرة فوق بقية الحقائب وخرجت مسرعاً.

ولكوني قضيت في هذه المفاوضات الماراثونية أزيد من ساعة، خشيت ألا أجد أحداً باستقبالي خارج المطار.. لكنني حين خرجت وجدت شاباً متأنقاً ومهيباً له لحية خفيفة، ويرفع لوحة صغيرة مكتوب عليها اسمي.. قلت: (بس.. هذا أكيد رئيس منتدى الكرامة قد جاء شخصياً لاستقبالي).. عندها سلمت عليه بحرارة، واعتذرت له كثيراً عن تأخري بسبب أزمة الكتب.. وبدأت أتحدث معه بعد ركوبنا للسيارة ـ وأنا متحمس ـ وأسأله عن بعض الشؤون السياسية في المغرب.. وإذ بالأخ يرد علي بردود مقتضبة وبلهجة مغربية صِرفة لا أفهمها!!.. بعد قليل اكتشفت أن الأخ مجرد سائق خاص عند رئيس منتدى الكرامة، ولا يعرف شيئاً عما أتحدث عنه!!.. تستطيعون اعتبارها صدمة ثانية بعد المنعطف التاريخي بأزمة تفتيش الكتب.

* * * *

وصلت إلى فندق بوسط الدار البيضاء قرابة الخامسة عصراً، أنزلت حقائبي، واستلمت الغرفة، وبدأت بترتيب بعض ملابسي وحاجياتي.

في حدود الساعة التاسعة اتصل بي موظف الفندق وقال لي أن هناك أحداً بانتظاري في بهو الفندق.. كان المحامي الفاطمي الرميد أحد أعضاء منتدى الكرامة قد أتى لرؤيتي والترحيب بي.. سلّمتُ عليه، ورحب بي بلطف، ثم جلسنا لما يقرب الساعة، عرفت فيها بعضاً من التفاصيل التي تخص منتدى الكرامة، وأنه يمثل الواجهة الحقوقية للإسلاميين في المغرب، وبدا واضحاً أن طرفي المُعادلة (حزب العدالة والتنمية "الخط السياسي"/ وحركة التوحيد والإصلاح "الخط التربوي والاجتماعي") هما الخلفية الرئيسية لمنتدى الكرامة لحقوق الإنسان.. لذا فرئيس المنتدى (المحامي مصطفى الرميد) هو ذاته رئيس الكتلة البرلمانية لحزب العدالة والتنمية في البرلمان المغربي.. ويبدوا أنه بسبب رغبة الحزب والحركة بتوسيع هامش المشاركة الإسلامية في هذا المنتدى الحقوقي، حرصوا على انضمام عدد من ممثلي الأحزاب والحركات الإسلامية الأخرى في المغرب لمجلس إدارة منتدى الكرامة، كحزب البديل الحضاري، والحركة من أجل الأمة، وسواهما.

وبعد ساعة من الحديث استأذن المحامي الفاطمي بالانصراف، فتوجهت مباشرة إلى مطعم الفندق لتناول طعام العشاء - وللمطبخ المغربي قصة سأذكرها لاحقاً.. وما أن اقتربت الساعة من الحادية عشرة حتى فرغت من تناول العشاء، وكنت قد أخذتُ قسطاً جيداً من الراحة بعد وصولي، ولايزال الليل في أوله، فقلت: (يا ولد ما بدهاش).. مررت على موظف الاستقبال، وأخذت اسم الفندق وعنوانه وخرجت.. وقررت أن أسير على قدمي في طرقات هذه المدينة التي أطأ أرضها لأول مرة، حتى ينهكني التعب.. عند ذلك سأكتفي بركوب سيارة أجرة ترجعني إلى حيث الفندق.

عندما خرجت، بدا لي واضحاً أن البحر في أحد الاتجاهات.. خاصة أن الفنار المرتفع والواقع على الشاطئ يلوح أمامي من بعيد.. سرت باتجاه البحر.. وبعد قليل لاح لي من بعيد مسجد الحسن الثاني الضخم الذي يقع أيضاً على المحيط الأطلسي.. فقررت أن أواصل السير باتجاهه.

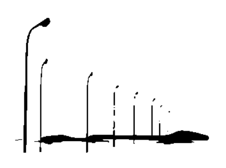
بدأت أمشي، وأمشي، لأكثر من نصف ساعة، حتى وصلت إلى مناطق مهجورة قرب ميناء كبير ومُظلم لا يسير بقربه أحد.. المشكلة أن المسجد مازال يلوح أمامي من بعيد، وأنا أسير باتجاهه.. وكل قليل تزداد ظلمة الشارع.. ونباح الكلاب الضالة يزداد.. وبدأت أرى أفواجاً من الكلاب تجري هنا وهناك.. وصاحبكم كما تعرفون لا يُحب الكلاب - هذا توصيف يحفظ ماء الوجه لحقيقة خوفي من الكلاب.. طلع المسجد بعيييد!.. ولكن لضخامته ظننته قريباً.

بعد قليل مررت بمناطق سكنية عشوائية أتت على شِمالي، ومازال الميناء على يميني.. ورأيتُ على أطراف هذه العشوائيات مجموعات من الشباب (الزقرت) يدخنون ويحششون وأشكالهم مُريبة.. طبعاً لم يكن هناك مجال للتراجع.. فقررت أن أتبع تكتيكاً خاصاً هو: أن أسير بسرعة وثقة في أي شارع أو طريق أدخل فيه، وكأنني أعرفه شبراً شبراً.. وألا ألتفت أو أسأَل أحداً حتى لا يُعرف أنني غريب.. واصلت المسير وأنا أردد (يا شماتة زملاء الرحلة فيك يا نواف.. هذه هي الدار البيضاء التي تستحقها).

بعد قرابة الساعة من السير المتواصل وصلتُ إلى مسجد الحسن الثاني، وهو تحفة معمارية في غاية الضخامة والروعة، ولكنه كان مغلقاً بالطبع في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.. فاتجهت إلى الشاطئ المُمتد خلفه وواصلت المسير.. حتى وصلت إلى المنطقة التي يوجد بها الفنار المُخصص لإرشاد السفن.. في هذه المنطقة، وبعد أن شعرت بالإنهاك، أخذت سيارة أجرة وطلبت منه أن يكمل السير بمحاذاة الشاطئ حتى آخره.. وبالفعل، سار بي على طول الشاطئ، وأخبرني بأسماء كثير من المعالم التي تقع عليه، مثل قصر الملك عبدالله الواقع على الشاطئ مباشرة - يسمونه في المغرب القصر السعودي، وبقربه مكتبة عامة كبيرة اسمها (مكتبة الملك عبدالعزيز

آل سعود) وهي بمحاذاة القصر، ثم منطقة تحوي عدداً من المطاعم والمقاهي، ثم شاطئ كورنيش مطور حديثاً.. وهكذا.

وقرابة الساعة الواحدة ليلاً عدت إلى فندقي العظيم استعداداً لمواعيد الغد.



حين صرتُ ممثلاً للسلفية الجهادية!



2

أفقت في صباح اليوم التالي (الجمعة) قرابة الساعة التاسعة صباحاً.. أجريت طقوس ما بعد الإفاقة، ثم نزلت كي أتناول على عجل طعام الإفطار في مطعم الفندق.. بعد ذلك عدت إلى غرفتي لكتابة الرتوش الأخيرة على الورقة التي سألقيها غداً السبت في ندوة منتدى الكرامة.

بالأمس قال لي المحامي الفاطمي الرميد أنني سأنتقل في هذا اليوم إلى فندق آخر هو الذي يضم بقية ضيوف الندوة.. ولكوني أتيت أبكر من الآخرين بيوم، لم يجدوا غرفة فارغة في ذاك الفندق، فاضطروا لحجز يوم في هذا الفندق، على أن أنتقل في الغد إلى الفندق الآخر.. لذا بدأت بحزم أمتعتي أيضاً استعداداً للانتقال.

وعندما أبلغني الفاطمي الرميد يوم أمس ببعض مواعيد يوم الجمعة، أخبرته برغبتي في أن أصلي الجمعة في جامع الحسن الثاني، فقال لي أن اثنين من أعضاء منتدى الكرامة سيأخذونني إلى هناك، بحيث نتوجه بعد فراغنا من الصلاة إلى منزل المحامي مصطفى الرميد (رئيس منتدى الكرامة ورئيس الكتلة البرلمانية للعدالة والتنمية) لتناول طعام الغداء.

في تمام الساعة الثانية عشرة قدم المحاميان فوزي مراد ومسعود الغالمي ليصطحباني

لأداء صلاة الجمعة في مسجد الحسن الثاني.. لا أدري كيف بدت بيننا أريحية عالية في التعامل منذ اللحظات الأولى، حتى ليخال من ينظر إلينا أننا أصدقاء حميمون نعرف بعضنا من سنين طويلة.. كان مراد ومسعود في غاية اللطف والظَرَف.. وبدأنا جولة أخرى من الحديث عن بعض الشؤون المغربية.

وصلنا إلى المسجد وكان الخطيب قد بدأ بخطبة الجمعة.. حملنا أحذيتنا ودخلنا.. ورغم أننا في السعودية معتادون على رؤية كثير من المساجد الضخمة والفخمة، بشكل لم أكن أظن معه أنني سأرى ما يُبهِر.. إلا أنني لم أستطع منع نفسي من التأمل بروعة المكان طيلة مدة جلوسي لسماع الخطبة.. ليست ضخامة المسجد الاستثنائية هي فقط ما يلفت الانتباه، بل وحجم الزخرفة والديكور والفن الذي يملأ كل زواياه وأعمدته وجدرانه.. أظن أن ما أُنفق من مال في زخرفة المسجد يفوق ذاك الذي أُنفق في إنشائه.. ورغم إعجابي بما رأيت، إلا أنني قررت أن أكبح جِماح بهجتي انسجاماً مع خطبة الجمعة التي كانت عن موضوع (ذم الفرح)!

بلغت كُلفة بناء مسجد الحسن الثاني عدة مليارات من الدراهم (الدولار يعادل ثمانية دراهم)، وكان إنشاؤه أشبه بتحدٍ كبير للدولة المغربية، وذلك بسبب كلفته المالية العالية.. لذا فقد ساهم كل الشعب المغربي في تحمل كلفة إنشائه، وذلك عبر التبرعات التي كانت تُجمع من كل أرجاء المملكة المغربيّة، وعلى مدار بضع سنين، إضافة إلى الاقتطاعات الشهرية من رواتب الموظفين الحكوميين للمساهمة في تغطية تكاليف الإنشاء.. لذا لايزال بعض الشيوخ السلفيين في المغرب يرون حُرمة الصلاة في هذا المسجد، لأن بعض تكاليف إنشائه أخذت عنوة من الناس عبر اقتطاعات إجبارية.

بعد أداء الصلاة توجهنا إلى منزل المحامي مصطفى الرميد، وهو كما ذكرت رئيس منتدى الكرامة لحقوق الإنسان ورئيس الكتلة البرلمانية لحزب العدالة والتنمية في البرلمان.. وفي ضاحية هادئة بالدار البيضاء سلمت على الأستاذ مصطفى وقلت له مازحاً: للتو اكتشفت أنك شخص واحد!!، فقد كنت أسمع عن مصطفى الرميد رئيس كتلة العدالة والتنمية في البرلمان، وعن الرميد - وكنت أظنه اسمه الأول - رئيس منتدى الكرامة.. وكنت أنسق مع طرفين مختلفين لألتقي كلا الشخصين.. مساء

الأمس فقط اكتشفت أنك (اثنان في واحد).. وأضفت وأنا أضحك: ربما كان هذا انسجاماً مع موجة الاندماجات التي يشهدها العالم هذه الأيام.

يُعد مصطفى الرميد من (الصقور) داخل حزب العدالة والتنمية، ومن أكثر قادة الحزب جرأة في نقد أخطاء السلطة والحديث عن الفساد والمحاكمات التعسفية للمعتقلين السياسيين. حتى أن أطرافاً داخل الدولة تحفظت على رئاسته لكتلة العدالة والتنمية البرلمانية بعد فوز الحزب بـ٤٧ مقعداً في انتخابات عام ٢٠٠٧م. ولكن مصطفى الرميد كان قد وصل لرئاسة الكتلة عبر الانتخاب، وهو قرار لا يمكن لأحد نقضه.

وفي الانتخابات النيابية التي جرت في العام ٢٠٠٢م وما أسفر عنها من وصول ٤٢ نائباً لحزب العدالة والتنمية، انتُخب مصطفى الرميد أيضاً رئيساً لكتلة الحزب البرلمانية.. ولكن بعد تفجيرات ١٦ مايو ٢٠٠٣م التي شكلت زلزالاً سياسياً هز المغرب، وتعاملت السلطة بعده بتوتر تجاه الحالة الإسلامية. كان مصطفى الرميد مُهدداً بأن توجه له عدة اتهامات قضائية، كالتعاطف مع أعمال العنف وسوى ذلك، وهو ما جعل الحزب يقوم بإجراء تسوية سياسية، يستقيل بموجبها الرميد من رئاسة الكتلة البرلمانية، على أن يُغض الطرف عن موضوع اتهامه ورفع الحصانة البرلمانية عنه. وتولى رئاسة الكتلة بعده أحد الشخصيات الهادئة في الحزب، وهو الأستاذ عبدالله بها.

وبسبب سقفه المرتفع في النقد، تعرض الرميد لعدة مضايقات، كان من أشهرها ما جرى لابنته هاجر في شهر مارس من العام ٢٠٠٥م، عندما تعرضت لعملية اختطاف من مدرستها الثانوية امتدت لعدة ساعات، ثم أطلق سراحها بعد أن أوصل الخاطفون رسالة واضحة لمصطفى الرميد بوجوب التخفيف من شراسته في النقد.

أثناء جلوسنا على مائدة الأستاذ مصطفى الرميد، بدأت موجة الأسئلة والاستفسارات، عن أداء كتلة العدالة والتنمية، وطبيعة التقسيم السياسي للأحزاب الكبرى ومناطق نفوذها، والتوقعات المستقبلية، وخريطة الأحزاب والجماعات الإسلامية في المغرب، وسوى ذلك.

حرص الأستاذ مصطفى على أن يشرح لي طبيعة مشكلة التيارات الجهادية في

المغرب وكيف بدأت ـ لكونه هو موضوع ندوة الغد ـ وكيف تأزم الوضع السياسي بعد تفجيرات ١٦ مايو ٢٠٠٣م، وما قصة السياسيين الستة الذين اعتقلوا قبل عام وبضعة أشهر تحت مبرر أحداث العنف، ومنهم رؤساء أحزاب وشخصيات سياسية شهيرة.

بعد أن استرسل الرميد في الحديث لبعض الوقت، التفت إليّ وقال: لم نكن نتوقع أن تحظى ندوة الغد بكل هذا الزخم، هناك حديث في الوسط السياسي عن أن هذه الندوة هي مقدمة لطبخة سياسية ما، والقنصل الأمريكي طلب الحضور شخصياً، والسفارة السعودية اتصلت بنا تطلب معلومات عن الباحث السعودي المُشارك في الندوة.. وأضاف مبتسماً: هل تعلم أنني تلقيت اتصالات من بعض الجهاديين من داخل السجن قالوا فيها أنهم سمعوا بأن هناك تحركاً سياسياً من أجلهم، وأن هناك وساطات خارجية للإفراج عنهم، وأن هذه الندوة سيحضرها شيوخ من السلفية الجهادية!.. ثم أضاف وهو يُشير إليّ ضاحكاً: يقصدونك طبعاً.. ومع دهشتي لكل هذه التوقعات، قلت له مُبتسماً: إذاً سأكون صباح الغد ممثلاً للسلفية الجهادية!!.. هذا خبر جيد.

وقبل أن يتوقف الحضور عن تناول الطعام، التفتُّ إلى صاحبيّ مراد ومسعود وقلت لهما: يجب أن تأكلا جيداً، فربما نُعلن الجهاد غداً.

* * * *

لوجبات الغداء في المغرب تكتيك خاص.. ففي البداية يضعون في وسط السفرة طبقاً دائرياً كبيراً وممتلئاً بنوع معين من الطعام.. وعندما تشرع في الأكل حتى تشبع، تُفاجأ بأن هذا الطبق مجرد شوط أول، حيث يُرفع هذا الطبق بعد قليل ويأتي طبق آخر يحوي نوعاً آخر من الطعام، وبالطبع عليك أن تأكل منه أيضاً، وبعد الطبق الثاني ربما يكون هناك طبق ثالث أو سلّة فواكه، ومن ثَمّ الشاي المغربي الشهير.

في قرابة الساعة الرابعة والنصف عصراً ودّعت الأستاذ مصطفى الرميد، وشكرته على كرمه ولطفه، واتجهت إلى الفندق الجديد الذي سأقيم به في اليومين القادمين.

وفي الفندق لم أمضِ أكثر من الدقائق التي احتجت إليها لرمي الحقائب في الغرفة، حتى امتطيت صهوةَ سيارة أجرة متجهاً إلى ضاحية أخرى على أطراف الدار البيضاء، وذلك للقاء الدكتور محمد عابد الجابري في منزله.

بدا الحي الذي يسكن فيه د.الجابري هادئاً ورائقاً وشوارعه فسيحة.. توقفت عند مدخل منزله، وطرقت الباب، وإذ به يجيبني من فناء المنزل، ثم فتح الباب ورحب بي بكل لطف.. دخلنا إلى ردهة مُحاطة بنوافذ زجاجية كبيرة تُطل على حديقة واسعة داخل المنزل.. وبدا أن د.الجابري كان وحده، فهو من فتح لي الباب الخارجي، وقام بنفسه بجلب الشاي وبعض الكعك، وحين ذهب لإحضار بعض الكتب التي تطرقنا للحديث عنها، قال لي: ليس لديّ من يساعدني سوى أولادي، وهم حالياً خارج المنزل.

وعلى امتداد ساعة ونصف تشعب الحديث مع الجابري في موضوعات عديدة، بعض أفكار كتبه، أصداء محاضرته الأخيرة في الرياض، كما واستوضحت عن مواقفه تجاه بعض الأفكار والتيارات الثقافية في العالم العربي، وسوى ذلك من موضوعات.

وبعد أن ودّعت الجابري، قررت أن أغتنم فرصة وجودي في هذا الحي الرائق والهادئ ذي الأشجار الكثيفة للتجول على قدمي لبعض الوقت.

وعقب نصف ساعة من السير، ركبت سيارة أجرة، وعدت إلى الفندق في قرابة الساعة السابعة والنصف.

في التاسعة كنت على موعد مع الصديق يونس الوكيلي الذي يتعاون معنا منذ مدة في بعض ما يخص شؤون النشر. ورغم أن يونس لم يتجاوز عامه الخامس والعشرين، إلا أنه يمتلك شبكة علاقات ثقافية واسعة، وهو يحمل شهادة الماجستير في السوسيولوجيا، وشرع بتحضير رسالة الدكتوراه.

وبينما كنت أجلس في بهو الفندق في انتظار وصول يونس، وجدت الباحث المغربي المتخصص في التيارات الإسلامية المغربية د.عبدالحكيم أبو اللوز، ومع أنني [illegible]تِ الدكتور عبدالحكيم من قبل، إلا أنني تذكرت [illegible]

الباحثين الذين سيقومون بالتداخل والتعليق في ندوة الغد.. ولأن د.عبدالحكيم يقيم في مدينة مراكش، فهو سيقضي اليومين القادمين معنا في نفس الفندق.

عند قدوم يونس الذي بدا أنه على علاقة وثيقة بـ د.عبدالحكيم، قررنا أن نخرج سوياً للتجول على الأقدام في طرقات وأزقة الدار البيضاء.

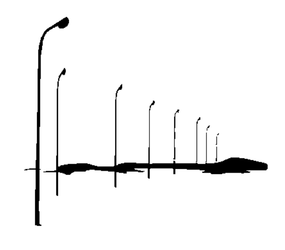
بالنسبة لي، أفقد قدراً كبيراً من متعة أي رحلة إذا لم أتجول سيراً على الأقدام لساعات عديدة ـ وحتى الإنهاك ـ في أزقة وطرقات المدن التي أزورها.

تجولنا على الأقدام في شوارع الدار البيضاء وأحيائها، وسرنا بمُحاذاة سور (المدينة القديمة)، ثم انتهى بنا المطاف بعد ساعة من التجول على مقاعد مقهى شعبي هادئ.

سألت د.عبدالحكيم عن رسالته للدكتوراه التي كانت عن التيارات السلفية في المغرب، وحكى لي كيف عاش مع المجموعات السلفيّة المتنوعة، وكيف انتظم في حضور حِلقهم ودروسهم ولازمهم شهوراً طويلة، حتى أنه أطلق لحيته وغدا أشبه بطالب من طلاّبهم.

أما يونس فقد حكى لي عن المركز الذي يعمل به، وهو (مجموعة الأبحاث والدراسات السوسيولوجية) التابعة لجامعة محمد الخامس، وعن بعض شجون المشهدين الثقافي والسياسي في المغرب.

بعد ثلاث ساعات من متعة التجول والحديث قررنا العودة إلى الفندق.. فلا نريد السهر أكثر، استعداداً لندوة الغد التي لا ندري ما الله صانع بها.



صرخت في الحضور:
لقد عشت مع القاعدة وطالبان!



3

في الساعة التاسعة من صباح السبت ٢٥ إبريل، لملمت أوراقي، ونزلت إلى بهو الفندق استعداداً للذهاب إلى مقر (دار المحامي) التي ستحتضن ندوة منتدى الكرامة.

دخلت إلى مطعم الفندق لتناول الإفطار، وإذ بي أجد على طاولة واحدة الصديق المصري الأستاذ حسام تمام (وهو من أبرز الباحثين المتخصصين في الحركات الإسلامية، ورئيس تحرير موقع "الإسلاميون" التابع لموقع إسلام أون لاين)، والدكتور نبيل عبدالفتاح (نائب رئيس مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية)، والدكتور عبدالحكيم أبو اللوز.. وبعد دقائق من تناول طعام الإفطار والحديث انضم إلينا الدكتور هيثم مناع (الحقوقي المعروف ورئيس "اللجنة العربية لحقوق الإنسان" التي تتخذ من باريس مقراً لها).

في التاسعة والنصف كنا برفقة مجموعة من شباب منتدى الكرامة في طريقنا إلى مقر انعقاد الندوة.

وفي (دار المحامي) حيث تُعقد الندوة التقينا بقية المشاركين، الدكتور أحمد الريسوني، الأستاذ مصطفى الرميد، الدكتور محمد ضريف، الدكتور عبدالعلي

حميد الدين، وعشرات من المُحامين والصحفيين والناشطين الحقوقيين والمعتقلين السابقين، وبالطبع مجموعة لا بأس بها من رجال الأمن المُتخفين بلباس مدني.

كان برنامج هذا اليوم الدراسي - كما يسمونه - ينص على انعقاد ندوتين، الأولى سيفتتحها المحامي مصطفى الرميد، ويديرها الدكتور عبدالعلي حميد الدين، ويتحدث في مقدمتها الدكتور أحمد الريسوني، ثم يقدم الدكتور نبيل عبدالفتاح ورقته عن التجربة المصرية في الحوار والمصالحة مع الجماعات الجهادية، ثم أتحدث بدوري عن التجربة السعودية في هذا المجال، وفي الختام يتحدث الدكتور هيثم مناع عن بعض الجوانب الحقوقية التي تخص الموضوع، وبعد ذلك يُفتح المجال للمداخلات وتعليقات الحقوقيين والصحفيين وبقية الحضور.

وفي حدود الساعة الثانية والنصف، وبعد مضي أزيد من أربعة ساعات على بدء الندوة الأولى، تم تخصيص ساعة ونصف للصلاة وتناول الغداء وعقد لقاءات ثنائية مع بعض الصحفيين.

وفي حدود الساعة الرابعة بدأت الندوة الثانية، التي كانت مخصصة للحديث عن تجربة الحوار في الحالة اللبنانية، وقدمها رجل الدين المسيحي الأب هادي آية، ثم تلاها طرح الأوراق التي تتحدث عن الحالة المغربية، حيث بدأها الدكتور محمد ضريف، ثم تبعه الدكتور عبدالحكيم أبو اللوز، وختمت الجلسة بتعليق الباحث حسام تمام على مجمل تجارب الحوار والمصالحة مع الجماعات الجهادية.. بعد ذلك فُتح المجال لتعليقات الحضور.. وختمت الندوة بكلمة مُلتهبة لرئيس منتدى الكرامة الأستاذ مصطفى الرميد، الذي وجه عدة رسائل سياسية ربما كشفت المغزى الأهم لانعقاد هذه الندوة.

لا أريد الحديث عن مضامين الأوراق التي تم طرحها في الندوة، لأن ذلك ربما يستهلك مساحة واسعة، إضافة إلى أن غالب الأوراق المطروحة تم نشرها في مواقع إعلامية عدة، (ورقتي منشورة في موقع مجلة العصر وموقع الإسلام اليوم).

لكن بدا واضحاً أن التعليقات التي شهدتها الندوة الثانية كانت الأكثر سخونة،

بسبب ارتباطها المباشر بالحالة المغربية، حيث يوجد في المغرب أكثر من ألف وخمسمائة معتقل إثر التفجيرات التي شهدها المغرب في ١٦ مايو ٢٠٠٣م وما تلاها. إضافة إلى أنه تم اعتقال ستة سياسيين ـ معظمهم من الإسلاميين المعروفين ـ في فبراير ٢٠٠٨، وهم الأستاذ المصطفى المعتصم رئيس حزب البديل الحضاري الذي تم حلّه مؤخراً، وكذلك الناطق الرسمي باسم الحزب محمد الأمين الركالة، والأستاذ محمد المرواني أمين عام الحركة من أجل الأمة وحزب الأمة الذي لم يُمنح رخصة سياسية، والعبادلة ماء العينين عضو المجلس الوطني لحزب العدالة والتنمية، وحميد ناجيبي العضو في الحزب الاشتراكي الموحد، وسادسهم مراسل قناة المنار عبدالحفيظ السريتي.. وهي القضية التي عُرفت باسم (خلية بلعيرج).

أحد أبرز التعليقات كانت لرجل ظل معتقلاً في السجون المغربية لمدة ستة أعوام (من بدايات العام ٢٠٠٢ وحتى ٢٠٠٨) وقد ذكر فيها شيئاً من تجربته في الاعتقال، وحال المعتقلين السياسيين، وحقيقة رفضهم لأعمال العنف والتفجير التي شهدها المغرب، وكيف أن التجربة المغربية تختلف عن بعض التجارب العربية، من ناحية أن التيارات الجهادية فيها لم تتشكل كجماعات مُنظّمة صارمة، وإنما هي أشبه بمجموعات عشوائية محدودة لا رأس لها، ولا تتكئ على مخزون نظري متماسك.

بعد ذلك قُرئت علينا رسالة موجعة كتبها المعتقلون من داخل السجون، وتحدثوا فيها عن معاناتهم داخل الجُدر الصماء التي تحيط بهم، وعن موقفهم الرافض لممارسة العنف والتفجير في المغرب.

أيضاً كان هناك تعليق مهم لشاب ينتمي لحزب العدالة والتنمية اسمه عبدالصمد بنعباد، حكى فيه شيئاً من تجربته المريرة، حيث وقف متحدثاً في ندوة تلت بأيام أحداث ١٦ مايو ٢٠٠٣م، وقال في تعليقه المُقتضب أن هذه التفجيرات تقف وراءها الاستخبارات المغربية.. وكانت نتيجة هذه الجملة القصيرة أن تم اعتقاله لمدة ثلاثة أعوام كاملة!، عاش فيها كل عذابات المُعتقلين السياسيين.. عبدالصمد افتتح تعليقه بجملة مؤثرة قال فيها (رفقاً بالمعتقلين)، حيث تحدث عن الحالة النفسية التي يعيشها

المعتقلون عندما يسمعون بانعقاد مثل هذه الندوات، لأنه دائماً ما تجتاحهم حالة تفاؤل عارمة، ويظنون أنهم سيخرجون قريباً، وأن مثل هذه الندوة التي يحضرها باحثون وخبراء عرب ودوليون لا بد أن تكون ممهدة لطبخة سياسية تشير إلى قرب الإفراج عنهم.. عبدالصمد قال أنه عاش تجارب مماثلة من هذا (التفاؤل الخادع) عندما كان في السجن، وعاش أيضاً حالة الإحباط واليأس العنيف الذي يشعر به المعتقلون بسبب خيبة أملهم وعدم حصول أي أثر سياسي عملي من هذه الندوات والمؤتمرات.. وأضاف أنه عرف أن المعتقلين اليوم باتوا يعلّقون آمالاً كبيرة على هذه الندوة، ويظنون أنها قد تؤدي إلى إغلاق ملفهم.

أيضاً شهدت الندوة عدة تعليقات ساخنة، مثل تعليق الأستاذ أحمد ساسي، وهو الرجل الثاني في (الحركة من أجل الأمة) التي يقبع زعيمها (محمد المرواني) في السجن من ضمن المُعتقلين السياسيين الستة.. وكذلك تعليق الناشط الحقوقي (إبراهيم سبع الليل) الذي اعتُقل إثر مداخلة هاتفية أدلى بها لقناة الجزيرة، تعليقاً على أحداث العنف التي وقعت في منطقة (سيدي إيفني) في شهر يونيو من العام ٢٠٠٨م، التي شهدت مظاهرات مطلبيّة لمجموعات من العمال والسكان، قاموا خلالها بحصار ميناء المدينة، فقامت قوات الأمن بمواجهتهم بعنف، نتج عنه بعض الوفيات وحالات تعذيب داخل السجون.

لكن يبقى التعليق الأكثر سخونة هو ذاك الذي أدلت به امرأة مُنقّبة لا يكاد يظهر منها شيء.. هذه المرأة كانت موجودة منذ بداية الندوات، لكنها لم تنبس بكلمة، وفي الوقت الذي أتيح للتعليقات الأخيرة طلبت التعليق، ثم ألقت كلمة كانت في غاية البلاغة والسخونة، قالت في ثناياها أنها عاشت مع القاعدة وطالبان في أفغانستان، وأنهما لم يكونا يدعوان إلى العنف والتفجير في البلاد الإسلامية، وتحدثت عما حصل لها من اعتقال في السعودية، ثم عن اعتقالها في المغرب لتسعة أشهر بزنزانة انفرادية مع طفلها الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره، وتحدثت بكل وجع عن الآلام التي عاشتها، وعن طفلها الذي أصيب بحالة مرضية ونفسية مزمنة لا تعرف لها عِلاجاً.

بصراحة لم أُطق الانتظار حتى تنتهي هذه المرأة من تعليقها، فسألت أحد الأصدقاء المغاربة عن قصتها، فأخبرني أنها زوجة عبدالكريم المجاطي الذي كان أحد قيادات القاعدة.

وعبدالكريم المجاطي هو من أم فرنسية وأب مغربي، وكان يدرس الطب في فرنسا، ولم يكن متديناً على الإطلاق، حتى أن زوجته قالت في مقابلة لها أنه لم يكن يُجيد العربية.. ولكن بعد تديّنه في بداية التسعينيات وذهابه لأفغانستان في عام ١٩٩٤م، اقترب من فكر الجماعات الجهادية، ثم صار أحد أهم القيادات العسكرية للقاعدة، واتُهم بالوقوف وراء كثير من الأعمال التفجيرية، كتفجيرات الدار البيضاء وتفجيرات مدريد وسواهما، وكان أحد قيادات القاعدة في السعودية مع بدء أعمال العنف في ٢٠٠٣م.. وقد قُتل هو وابنه الأكبر آدم - الذي كان يبلغ من العمر ١١ عاماً - على يد قوات الأمن السعودي في المواجهات الشهيرة التي حصلت بمدينة الرس في إبريل ٢٠٠٥م.

أما التعليق الأخير في ختام هذا اليوم الدراسي، فكان من نصيب رئيس منتدى الكرامة الأستاذ المحامي مصطفى الرميد، الذي ألقى بدوره كلمة مُلتهبة تحدث فيها بجرأة عن وجود أطراف في السُلطة بدأت تعتاش على قضية المعتقلين، وتؤخر عمداً أي مبادرات للحل، وأنها لا تفتأ تحقن كل حين مزيداً من القلق والشك في أوردة القيادة السياسية بالمغرب، بهدف تخويفهم من تفجّر أحداث عنف جديدة، وتحذيرهم من خطورة إطلاق المُعتقلين.

الندوة كانت تهدف إلى إيصال رسالة سياسية مفادها أن الحوار مع الجماعات الجهادية داخل السجون وخارجها، واعتماد وسائل الإقناع والتأثير الفكري هو الطريق الأكثر نجاعة في إيقاف دورة العنف، وأن الحلول الأمنية - حتى وإن نجحت - لا يمكنها أن تشكل حلاً عميقاً وجذرياً لظاهرة العنف.

هذا اليوم الدراسي بما تضمنه من أوراق بحثية مهمة، ومداخلات ربما بدا بعضها أكثر أهمية، إضافة إلى فرصة إجراء أحاديث جانبية مع عدد من الباحثين

والصحفيين والحقوقيين والناشطين السياسيين، والتي استطعت من خلالها التعرّف على بعض الرؤى والمشروعات لعدد من الأحزاب والتيارات والمنظمات السياسية الناشطة، أتاحت لي هذه الساعات الكثيفة أن أقترب أكثر من المشهد السياسي والفكري المغربي، وأن أضيء بعض الزوايا المُعتمة التي لم يكن ممكناً إدراك تفاصيلها عن طريق المتابعة عن بُعد عبر وسائل الإعلام ومواقع الإنترنت.

* * * *

وفي حدود الساعة الثامنة مساءً توجهنا إلى الفندق.. ومع رغبتي في مسايرة ساعتي البيولوجية التي تُجبرني على الاسترخاء ولو لربع ساعة في فترة العصر أو المغرب، من أجل إعادة ضخ الوقود في محركات النشاط الذهني والجسدي قبل عملية (إعادة الانتشار) والحركة في الفترة المسائية. إلا أن جلوس غالبية ضيوف الندوة وعدد من المُنظمين في بهو الفندق حفزني على البقاء.

قضينا في بهو الفندق ما يمكن اعتباره مُلحقاً مهماً للندوة، فالأحاديث الجانبية، والتواصل الشخصي بعيداً عن رسمية الأجواء، والاسترخاء في العلاقات بين الجميع، بل وأجواء الظَرَف والسخرية التي سادت، كل ذلك ساهم في تعميق أواصر العلاقات الشخصية بين المشاركين.

جلست لنصف ساعة مع د.هيثم مناع، حكى لي خلاله بعضاً مما يقومون به في اللجنة العربية لحقوق الإنسان.. ثم انضم إلينا د.عبدالعلي حميد الدين الذي كان المنظم الرئيسي لهذه الندوة.. وبعد قليل اتسعت دائرة الحضور لتشمل عدداً من المحامين الأعضاء في منتدى الكرامة، وبعض الضيوف المشاركين.. واستمعنا جميعاً باستمتاع لبعض الحكايات الطريفة التي حصلت للدكتور هيثم مناع أثناء تنقلاته ونشاطاته لمتابعة قضايا تخص ملفات حقوق الإنسان في العالم العربي.

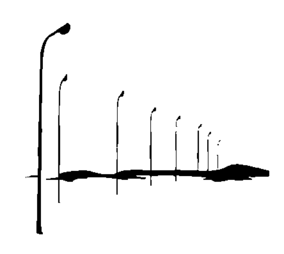
وقبل العاشرة بقليل كان معظم الحضور قد غادروا الفندق، وبقيت مع حسام تمام ود.نبيل عبدالفتاح ود.عبدالحكيم أبو اللوز.. فقررنا الخروج والسير في شوارع الدار البيضاء، وعدم تفويت فرصة التجول بمثل هذا الطقس المُعتدل في أواخر نيسان.

في الليل تبدو الدار البيضاء مشابهة لمعظم المدن الأوروبية، حيث تخِف الحركة في الطرقات بعد الساعة التاسعة أو العاشرة بشكل ملحوظ، وتُصبح المَدينة أكثر هدوءاً واسترخاءً.. وبعد ساعة من التجوال أخبرنا حسام أنه يعرف مقهىً جيداً جلس فيه عدة مرات سابقاً، واسمه (مقهى فرنسا).. اتجهنا إلى هذا المقهى ـ الذي اكتشفت أن له حكاية بعد ذلك ـ وجلسنا على طاولة في أحد الأركان، واستمر تداعي الحكايات والنُكات والقصص والنقاشات حول عدد من الموضوعات، وعقب مرور بعض الوقت انضم لنا اثنان من جماعة العدل والإحسان، أحدهما عضو في المكتب السياسي للجماعة، وكان هذا حافزاً لي على أن أستوضح منهما عن بعض مواقف الجماعة ورؤاها في الشأن السياسي والفكري .

فجماعة العدل والإحسان ذات الشعبية الكبيرة، والمُتكئة على إرث صوفي عميق على الطريقة البوتشيشية، والتي يمثل الشيخ عبدالسلام ياسين مرشدها العام والأب الروحي للجماعة (وهو من أسرة أمازيغية معروفة)، تأسست فعلياً عام ١٩٨١م، وتعرّض مُرشدها الشيخ ياسين للاعتقال عدة مرات، لكونه من أبرز المعارضين لنظام الحُكم الملكي في المغرب، وقد بدأ حضوره السياسي بالرسالة الشهيرة والجريئة التي بعثها إلى الملك الحسن الثاني في العام ١٩٧٤م، وكانت بعنوان (الإسلام أو الطوفان)، وتقع في حدود المائة صفحة.. هذه الجماعة ما زالت حتى اليوم ترفض المشاركة في العمل السياسي، وتأخذ منحىً تصعيدياً تجاه السلطة، وقد أرسل الشيخ عبدالسلام ياسين في العام ٢٠٠٠م رسالة شبيهة بتلك التي أرسلها للملك الحسن الثاني، ولكن هذه المرة للملك محمد السادس بعد توليه الحكم في المغرب، وكانت بعنوان (إلى من يهمه الأمر).

سألت الأخوين عن موقف الجماعة تجاه عدد من قضايا الفكر والسياسة، وعن

قدرتها على بلورة إنتاج نظري رصين تجاه هذه المواقف، وعن أفقها المستقبلي، وعلاقتها بالأحزاب والحركات الإسلامية المغربية الأخرى. وقد أجاب الأخوان عن تساؤلاتي بكثير من اللطف والاهتمام.



كل العالم يتكثّف في ساحة الفناء



4

أياً كان السبب وراء قدومي إلى المغرب ـ التي أزورها لأول مرة، فإن عدم رؤية بعض المواقع والتجول ببعض المدن الشهيرة يُعد ناقصاً من نواقض الرحلة.. وكما أن الحج عرفة، فالمغرب هو مُراكش.. لذا قررت أن أذهب في يومي اللاحق لرؤية مدينة مراكش لبضع ساعات فقط ومن ثَم العودة إلى الدار البيضاء مساء ذات اليوم.

من أفضل ما يلاقيه السائح في المغرب هو شبكة الخطوط الحديدية التي تصل شمال المغرب بجنوبها وشرقها بغربها، بحيث تمتد شبكة القطارات لتصل إلى كل المدن الرئيسية تقريباً.

صباح يوم الأحد رافقني الدكتور عبدالحكيم أبو اللوز إلى محطة القطارات بالدار البيضاء، وكان حظي السيئ أن وجدت قطار الساعة العاشرة والنصف الذي كنت أنوي الذهاب به إلى مراكش متعطلاً، فكان لا بد من الانتظار إلى أجل غير مسمى، حتى يحين وقت الرحلة القادمة التي لا أحد يدري متى ستكون.. جلست مع د.عبدالحكيم في مقهىً ملاصق لمحطة القطار، نتصفح الصحف اليومية، ونشرب الشاي المغربي.. فقمت بشراء غالب الصحف الرئيسية التي تصدر في المغرب بهدف تصفحها والتعرّف عليها في لحظات الانتظار التي بدا واضحاً أنها لن تكون قصيرة.

يصدر في المغرب العديد من الصحف، بعضها ينتمي إلى الأحزاب السياسية، كصحيفة (العَلَم) التابعة لحزب الاستقلال الذي يحتل زعيمه عباس الفاسي منصب الوزير الأول في الحكومة المغربية، وصحيفة (الاتحاد الاشتراكي) التابعة لحزب الاتحاد الاشتراكي الذي كان زعيمه عبدالرحمن اليوسفي يحتل ذات المنصب ـ الوزير الأول ـ قبل الانتخابات البرلمانية الأخيرة التي جرت سبتمبر ٢٠٠٧م، وصحيفة (التجديد) التابعة لحركة التوحيد والإصلاح التي تُعد الوجه الاجتماعي والتربوي لحزب العدالة والتنمية الإسلامي (رغم انفصالهما التنظيمي التام)، والعديد من الصحف الأخرى، كالصباح، والصباحية، والأحداث المغربية، والجريدة، والأيام وسواهم.

لكن عندما تسأل أي أحدٍ في المغرب (ما الصحيفة الأكثر انتشاراً وتوزيعاً؟) فلن تجد سوى إجابة موحدة: (صحيفة المساء)، وحين تسأل لماذا؟ سيجيبك الجميع أيضاً: بسبب مقالات (رشيد نيني).

صحيفة المساء شكلت ظاهرة جديدة في الوسط الصحافي المغربي، فهي رغم حداثة سنها الذي لم يتجاوز خمس أو ست سنين، إلا أنها باتت الصحيفة الأجرأ والأكثر تعبيراً عن هموم المواطن المغربي.. لكن الأهم في الصحيفة ليس جرأتها وحداثة لغتها الصحفية، بل المقالات اليومية الطويلة التي يكتبها الكاتب المغربي رشيد نيني وتتصدر الصفحة الأخيرة من الصحيفة. حيث يملك رشيد نيني لغة صحفيّة مُبهرة، فيها مخزون هائل من التشويق والسخرية اللاذعة، والنبش في المسكوت عنه، ونقل هموم المواطن المغربي بأفضلِ صورة مُمكنة.. ومذ قرأت مقاله الأول، حرصت على أن أشتري صحيفة المساء يومياً لمُتابعة مقالاته والاستمتاع بلغته الصحفية الرفيعة، فالكاتب الصحفي الموهوب بات اليوم أندر من الخِل الوفي في الزمن الرديء.

وبسبب انتظارنا دون هدىً في هذا المقهى، كان د.عبدالحكيم يذهب كل ربع ساعة إلى محطة القطار المجاورة للسؤال عن إمكانية وجود رحلة جديدة لمراكش.

في الثانية عشرة والربع جاء د.عبدالحكيم وهو يلهث ويقول: أسرعِ.. سيتحرك قطار مراكش بعد لحظات.. سحبت حقيبتي الصغيرة وتوجهت مُسرعاً إلى الموظف

الجالس على شباك التذاكر الذي ناولنا بسرعة تذكرة إلى مراكش، وتوجهت لفوري إلى القطار الذي بدأ يتحرك.. وكنت آخر من ركب.

كانت الدرجة الثانية التي صعدت إليها مكتظة بالركاب، فقطعت المسافة بين القاطرات متوجهاً إلى كابينات الدرجة الأولى.. قلت للموظف هناك: معي تذكرة الدرجة الثانية، هل يمكن أن أدفع فرق السعر وأجلس في الدرجة الأولى؟.. الموظف بدوره أفادني بإمكانية ذلك، وضرب على جهاز يحمله معه، وأخرج لي فاتورة بقيمة الفرق بين الدرجتين، ثم قرأ من الفاتورة رقم المقعد المخصص لي، وسار أمامي كي يوصلني إلى الكابينة التي سأجلس بها.

القطارات التي تتجه إلى مسافات بعيدة نسبياً يكون التوزيع الداخلي للمقطورات على شكل كبائن مُنفصلة، تشبه الغرف المُحاطة بنوافذ زجاجية، وفي كل كابينة ستة مقاعد على شكل صفين متقابلين، في كل صف ثلاثة مقاعد.

عندما وصلت إلى الكابينة المُحددة فوجئت للوهلة الأولى بوجود فتاة عشرينية تنام على ثلاثة مقاعد!، وفي مقابلها تجلس سيدتان كبيرتان على مقعدين من المقاعد الثلاثة المقابلة.. طلب الموظف من الفتاة الجلوس، وأشار إلى المقعد الذي بجوارها وقال لي: اجلس هنا.

بصراحة أُصِبت بحرج.. قلت لها بشكل اعتذاري: آسف للإزعاج، ابقي على راحتك، سأجلس في المقعد المقابل.. وقمت بالجلوس بجانب السيدتين العجوزين.. طبعاً هي قامت بدورها من النوم وقالت: آسفة، لم أنم البارحة على الإطلاق (طبعاً هذا بعد الدبلجة، لأنها قالتها باللهجة المغربية).. جلستُ على هذا الشكل قرابة الربع ساعة، تصفحت فيها بعض الصحف المغربية التي كانت بحوزتي، فيما تخللت هذه المدة حواراتٍ قصيرة بين الفتاة والسيدتين بلهجة محلية صِرفة لا أكاد أفهم منها شيئاً!

بعد قليل نهضت من مقعدي وتوجهت إلى الممر باحثاً عن العربة التي تبيع الشاي والقهوة.. وجدت أمامي ثلاثة شُبان يقفون في الممر بشكل يعيق العبور،

سلمت عليهم وسألتهم عن عربة المرطبات، وإذ بهم ليسوا مغاربة.. الأول كان عراقياً، والثاني عرفني بنفسه ـ بعد أن عرف أنني سعودي ـ وقال مبتسماً أنه (من القطيف)، أما الثالث فكان فلسطينياً، وما يجمعهم أنهم طلبة يدرسون بكندا، وقد أتوا لزيارة المغرب في فترة الإجازة.

بدأنا نتحدث ونتعارف ونسأل بعضنا عما يمكن أن يُزار في المغرب، ثم امتد الحوار ليصل إلى مواضيع عديدة، السنة والشيعة، العراق، إيران، فلسطين، لبنان، وحزب الله وحماس و ١٤ آذار و ٨ آذار، وسوى ذلك (كان العراقي والسعودي ينتسبان للمذهب الشيعي، وعاشا زمناً في كنف حزب الله بلبنان).. قلت لهم: ألله جابكم.. سحبت حقيبتي الصغيرة من مقعدي بجوار السيدتين وجلست مع الشباب في كبينتهم ـ تمنيت لو كان معنا أحد رواد العالم السُفلي من زملاء رحلة القدوم من الرياض، حتى أبيعه مقعدي في الكبينة، الذي تخليت عنه بالمجان.. وأمضينا وقتاً مُمتعاً في هذه الرحلة التي امتدت لثلاث ساعات.

الغريب أن الشاب القطيفي كان الأكثر حماساً ودفاعاً عن إيران وحزب الله.. فيما الشاب العِراقي ـ الذي تربطه علاقة قرابة بعائلة الحكيم الدينية في العراق وإيران ـ كان ينتقد إيران دون حرج، ويرفض سياستها في العراق، ويؤكد أنها تواطأت مع الأمريكان في هذا الاحتلال، ويرى أن لها مشروعاً فارسياً شيعياً تريد تصديره.

أما الشاب الفلسطيني فرغم أنه لم يشارك بالحوار سوى في آخر الرحلة، إلا أنه كان (تُحفة) لوحده.. هو من ذاك النوع الذي عاش طيلة حياته في كندا، وتشبع بالثقافة الكندية من شوشة رأسه حتى الأصبع الكبير لرجله اليُسرى، وتجد على وجهه ذلك الخيط الرفيع من اللحية، وكان طِوال كلامه يتحدث عن أن العرب متخلفون، و (إحنا بدنا سلام، وما بدنا نذبح بعضِ مع اليهود، إحنا كلنا بشر وإخوان، خلاص ما بدنا حروب، بدنا سلام!) وكلامٌ رومانسيٌ كثير، من النوع الذي لا يُصرف في سوق السياسة بقرش واحد!.

* * * *

وصلتُ إلى مراكش في قرابة الساعة الثالثة والنصف، وكان أول ما فعلته أن توجهت إلى شُبّاك التذاكر في محطة القطار لحجز مقعد العودة إلى الدار البيضاء، حيث قررت العودة على متن قطار التاسعة مساءً.. أمامي إذاً ما يُقارب الخمس ساعات.

أخذت سيارة أجرة، وتوجهت مباشرة إلى المَعلم الأهم في مراكش، (ساحة الفناء)، أو ساحة جامع الفناء.

ورغم وجود العديد من المُدن التاريخية في المغرب التي تُعد أكثر قدماً من مدينة مراكش، خصوصاً تلك التي بناها الأدارسة في القرن الثاني والثالث الهجري، وأهمها مدينة فاس التي كانت عاصمة لعدد من الدول التي حكمت المغرب، وكذلك مدن طنجة وأصيلا ومكناس وسبتة وتطوان وسلا وسواها ـ وكلها مدنٌ بناها الأدارسة .. إلا أن مدينة مُراكش في تقديري تُعد الأكثر أهمية.. حيث بقيت مراكش عاصمة لبعض أهم الدول التي تعاقبت على المغرب قروناً طويلة.. ومنذ أن أتم بناءها أمير المُرابطين يوسف بن تاشفين في العام ٤٥١هـ، بقيت مُراكش عاصمة لدولة المرابطين، ومن ثم عاصمة لدولة المُوحدين، وبعد أن رجعت فاس عاصمة للدولة المرينية ثم الدولة الوطاسية، أعاد السعديون العاصمة إلى مراكش مرة أخرى.

تُسمى مراكش المدينة الحمراء، لأن اللون الأحمر للحجر الصخري الذي شُيدت به غالبية مبانيها صَبغ المدينة بلونٍ أحمر داكن ومُميز.. وهي تقع وسط واحة خصبة في عُمق الصحراء المغربية، وملاصقة لأكبر غابة نخيل في المغرب ـ تضم ما يُقارب المائة ألف نخلة، وكانت في أساسها مدينة حربية ينطلق منها جنود المرابطين، وهي تبعد عن مدينة الدار البيضاء قُرابة المائتين وخمسين كيلو متراً.

وما يُميز المدن المغربية اليوم أن هناك على الدوام سوراً تاريخياً يحيط بالمدينة القديمة، وخارج السور تبدأ أحياء المدينة الجديدة التي تم تشييدها عادة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مع قدوم الاستعمار الفرنسي.

توجهت أولاً إلى جامع الكتبيّة التاريخي، والذي يقع في الطرف الجنوبي لساحة الفناء، وهو الجامع الكبير الذي بناه الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي عقب سيطرة الموحدين على مدينة مراكش بعد تسعين عاماً من بنائها، أي في حدود العام ٥٤١هـ.

كانت صلاة العصر قد انتهت، فدخلت إلى الجامع لأداء صلاتي الظهر والعصر جمعاً.. وجدت عدداً ضئيلاً من المُصلين، وحلقة شرعية يتحدث فيها أحد الشيوخ، ويحيط به عدد من المُستمعين.. بعد أدائي للصلاة قمت بالتجول قليلاً في أرجاء الجامع وساحته الداخلية. وإذ بحارس الجامع يقترب مني ويسألني بلهجة ممزوجة بين المغربية والفصحى: من أي الديار أنت؟ قلت له: من السعودية.. عندها اقترب أكثر وصافحني بحرارة وقال: أتيتنا من عند شيخنا الإمام محمدٍ بن عبدالوهاب.. قلت له مبتسماً: بالضبط.. وفي نفسي أقول (بالأمس كنت أُمَثّل السلفية الجهادية!.. واليوم أُمَثّل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب!.. ولا أدري من سأمثّل في الغد!).

تُعد مدينة مراكش من أهم معاقل التيار السلفي التقليدي في المغرب.. ورغم أن للتيار السلفي الحديث في المغرب اتجاهين رئيسيين (والمقصود بالسلفية الحديثة، أي تلك التي وردت إلى المغرب في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، لا السلفية القديمة التي يُعد من رموزها علاّل الفاسي في المغرب، وابن باديس في الجزائر، والسنوسي في ليبيا، ورشيد رضا في مصر)، هما يُماثلان الاتجاهين الاعتياديين للسلفية في غالب الدول العربية .. الأول سلفية تقليدية مُعارضة للسلطة، ولها خطاب سياسي حاد، وتقترب بشكل أو بآخر من السلفية الجهادية، ومن رموزها في المغرب محمد الفزازي مؤسس (جمعية أهل السنة والجماعة) وخطيب مسجد الداخلة بمدينة طنجة، ومحمد الرفيقي المُسمى بأبي حفص المغربي وهو خطيب أحد جوامع مدينة فاس، والحسن الكتاني خطيب مسجد مكة بمدينة سلا الملاصقة للعاصمة الرباط، وعمر الحدوشي خطيب مسجد بلال بمدينة تطوان، وسواهم.. والأربعة المذكورون مُعتقلون في السجون المغربية منذ بداية أحداث العنف التي شهدها المغرب في ١٦ مايو ٢٠٠٣م بتهمة التكفير وتشكيل خلايا مقاتلة وتشريع

أعمال العنف.. (الجدير بالذكر أن المحامي مصطفى الرميد رئيس الكتلة البرلمانية للعدالة والتنمية هو من أبرز مُحامي هذه المجموعة الجهادية.. وفي رأيي أن تعاطف ودفاع تيار إسلامي مستنير "العدالة والتنمية" مع رموز التيارات الجهادية الذين لم يثبت تورطهم في العنف - رغم الخلاف الفكري الكبير والمعارك الفكرية السابقة - هو من الظواهر الإيجابية التي تنفرد بها الحالة المغربية، ولا نكاد نرى مثيلاً لها في التجارب الإسلامية الأخرى بالدول العربية).

والسلفية الأخرى هي سلفية تقليدية مداهنة، لا تمثل معارضة للسلطة، بل ويعدها الكثيرون من التيارات الموالية لنظام الحكم، والبعيدة عن أي فعالية سياسية. حتى أنها بسبب موقفها المُداهن للسُلطة المغربية تلقت نقداً عنيفاً من رموز السلفية المُعارضة ذات الميول الجهادية.. وهذه السلفية المداهنة هي الأكثر حضوراً بمدينة مراكش. ومن أبرز شخصياتها الشيخ محمد المغراوي رئيس (جمعية الدعوة إلى الكتاب والسنة)، الذي يُعد امتداداً للمدرسة السلفية الرسمية في السعودية، وتربطه علاقات مميزة مع العلماء الرسميين السعوديين، وحظي بشهادات تزكية من عدد منهم، على رأسهم الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله. (من الطرائف أن التيار الجامي في السعودية يعتبر الشيخ محمد المغراوي من التكفيريين الخوارج، ومن أهل البِدع والأهواء!!).

كان المغراوي من أبرز الذين ردوا على الشيخ عبدالسلام ياسين مرشد جماعة العدل والإحسان في كتاب شهير له صدر عام ١٩٨٩م، واسمه (رسالة الإسلام إلى مرشد العدل والإحسان).. وكان المغراوي عنيفاً في نقده لجماعة العدل والإحسان ومرشدها، في ذات الوقت الذي كان فيه التصعيد الأمني للسلطة المغربية على أشده ضد جماعة العدل والإحسان، وكان عبدالسلام ياسين قيد الحصار والإقامة الجبرية، وكثير من قيادات الجماعة في السجن.

الغريب أن الشيخ محمد المغراوي لم يسلم هو الآخر من التضييق، على أثر الضجة التي أثيرت في أواخر العام ٢٠٠٨م، وذلك بسبب قضية فقهية بسيطة، حين أفتى بجواز زواج البنت في عمر التسع سنين. إلا أن هذه الفتوى اعتُبِرت

مخالفة صريحة للفتوى الرسمية التي أصدرها (المجلس العلمي الأعلى) الذي يُعد الجهاز الديني الرسمي للدولة المغربية.. لذا اتُهم المغراوي بالإفتاء دون ترخيص!، وبزعزعة ثوابت الأمة!!. وعلى إثر ذلك تم توجيه اتهام قضائي له، وتم إغلاق دور القرآن المرتبطة بجمعيته، وحجب الموقع الإلكتروني لهذه الجمعية.. ووسط تصاعد التبِعات لتلك الفتوى، قرر المغراوي مغادرة المغرب والإقامة في السعودية.

بعد خروجي من جامع الكتبيّة توجهت مُباشرة إلى ساحة الفناء.

حين اقتربت من ساحة الفناء، وبدأت الولوج إلى محيطها، شعرت وكأنني أسير في مشاهد فيلم تاريخي قديم.. اكتظاظ أعداد كبيرة من الناس وسط ساحة واسعة وممتدة، تُحيط بها أبنية قديمة من كل الجهات، وعلى أطرافها مطاعم ومقاهٍ شعبية، وفي ثناياها عشرات التجمعات والعروض الشعبية، وعربات المأكولات، والبهلوانيون، وبائعو الحيوانات، وعدد كبير من المغاربة والسياح من كل دول العالم، ونشاط وتوهج ينضحان من وجوه الجميع.

تجولت في كل نواحي الساحة، ووقفت عند بعض العروض البهلوانية، وشربت عصيراً محلياً غريباً من إحدى العربات، وصوّرت الحاوي وهو يعزف للأفاعي من بُوقه لتتعالى وتقف مع كل مقطوعة جديدة.

بعد ساعة من التجوال في ساحة الفناء، توجهت إلى العربات التي تجرّها الأحصنة، واتفقت مع أحد السائسين على أن يتجول بي في أرجاء مراكش.

اكتشفت أن لمراكش وجهاً شديد الحداثة، فنادق فخمة، وأسواق كبيرة، وشوارع واسعة.. بعد مرور بعض الوقت من جولتي في مراكش الحديثة قلت للسائس، وكان اسمه كريم: ما لهذا تُشد الرحال يا كريم.. أعدني إلى أزقة المدينة القديمة.

رأيت على أطراف مراكش القديمة سور المدينة الضخم، والمبني من الحجر الأحمر الداكن، وإحدى بوابات مراكش التاريخية.. في أرجاء المدينة القديمة أحياء متعددة، لازال يسكن بها أكثر من مائة ألف إنسان، وفيها أزقة ضيقة لا

يتسع بعضها لأكثر من عابر واحد، وعلى جانبي طرقاتها مبانٍ قائمة منذ مئات السنين، وأسواق شعبية مكتظة تحوي كل التراث المراكشي الأصيل. ومطاعم ومقاهٍ ودكاكين متنوعة.

الظاهرة المُلفتة في مراكش هي كثرة الدراجات النارية.. أعدادها الكبيرة المتوقفة على جنبات الشوارع وبقرب الدكاكين.. وكثافتها وهي تسير في الطرقات.. ومنظر النساء - حتى المُحجبات - وهن يقدن دراجاتهن بكل أريحية.. هو أمر لا تكاد تراه في المدن المغربية الأخرى.. أحد الأصدقاء من أهل مراكش حكى لي بعد ذلك أن سبب هذه الظاهرة هو تدني الدخل المادي، ولأن أغلب أهل مراكش - حتى أولئك الذين يعملون بوظائف جيدة - لا يستطيعون شراء سيارة، لذا غدت الدراجات النارية ظاهرة مألوفة، ويستعملها حتى أصحاب الوظائف المرموقة، وبعض النساء.

أثناء تجوالي مررت بالقرب من ضريح يوسف بن تاشفين، ويقع في منطقة منزوية وصعبة الوصول، ومُهملة تماماً.. وربما كان هذا من مفارقات الزمان.. مع أننا في منطقة تسودها الطرق الصوفية المُعظمة للقبور، إلا أننا نجد قبر يوسف بن تاشفين (مؤسس مراكش وباني دولة المرابطين وأعظم زعماء المغرب)، يقع في منطقة ضيقة ومُتسخة لا يكاد يعرفها أحد، ولا يرتادها سائح، فيما قبر سجينه (المُعتمد بن عباد) الواقع في منطقة أغمات - وتبعد عن مراكش قرابة الثلاثين كيلو متراً - يقع في مبنى كبير ومزدهر، وصار مزاراً يرتاده مئات السياح!.

صليت المغرب والعشاء في أحد المساجد العتيقة المنزوية، ثم سرتُ على طول شارع (البلنس) الأشهر في المدينة القديمة.. وعدت إلى حيث تُشع ساحة الفناء ليلاً.

اتجهتُ إلى وسط الساحة مجدداً، ودخلتُ إلى مطعم شعبي مكشوف في وسط الساحة بعد أن راق لي شكله كثيراً، وسألتُ النادل إن كان هناك مأكولات مراكشية خالصة، فوضع لي بعضاً منها على إحدى الطاولات الممتدة، التي تستخدمها كل المطاعم وسط هذا الميدان.

بعد فراغي من الأكل، توجهت إلى أطراف الساحة.. وألقيت بجسدي المُنهك

على مقعد خشبيٍ في مقهىً مُرتفع يُطل على المشهد الليلي المُبهر لساحة الفناء.. طلبت شاياً مغربياً.. وفتحت جهازِ اللاب توب.. وأخذتُ أملأ رئتي من الهواء المراكشي البارد.. وأتأمل الساحة المُشعّة.. وأكتب:

* * * *

كل العالم يتكثف في ساحة الفناء.. صهيل خيول المرابطين، ووقع جيوش الموحدين، وضوضاء طبول الحرب، ودوي الحشود، وصخب المنادين، وصليل السيوف، والأسمال العتيقة، والعمائم المتمايلة، والوجوه المتوهجة، وناسخو الرقاع، والأفاعي المسترخية على أكتاف الحواة، وعازفو الأعواد القديمة، والراقصون على هتاف النصر، وبائعو الحيوانات الغريبة.. ضجيج العالم القديم، ووهج الأبنية المغبرّة الضاربة في عمق الزمن، كل شيء هنا يُشعرك أنك جزء من مشهد يتكرر بكل تفاصيله منذ قرون، وأن العولمة عجزت أن تفعل فعلها في هذه الجغرافيا المنزوعة من أعماق التاريخ.

مواسم الضجر لا تحل في سماء ساحة الفناء.. وقوافل المُنهكين والمكدودين لا تعبر مسالكها ولا تطأ ترابها.. وأزمنة التداعي والانكسار لا تتسرب إلى دواخل رجالات هذا الميدان المكتظ بالزهو والبهجة.

لا حل لتلك العيون الواجفة المرتعشة، التي ترتكب مزيداً من العثرات، وتلهث وراء الوجع، وتنوء بحمل ذهنها المُتعب، سوى أن تحقن أوردة جسدها المهدور بجرعات من هواء ساحة الفناء، وتسكب على رأسها قطراتٍ من ماء الأمل الذي ينهال علَى مسارب المدينة وأزقتها القديمة.. عليها أن تتوسد حنين مراكش، وتجنح مع خيالها الخصب، وتتوارى خلف روحها الضاجة بالحياة.

هنا حُلُمٌ آثر الهوى أن يطيله.

ساحة الفناء - مراكش - ٢٦ إبريل ٢٠٠٩م

* * * *

أقفلت جهازي قرابة الساعة الثامنة والنصف.. وكنت اتفقت مع د.عبدالحكيم أبو اللوز ـ وهو من أهل مراكش ـ على أن نلتقي ولو للحظات في ساحة الفناء بعد عودته المسائية من الدار البيضاء، وذلك قبل أن أتوجه لمحطة القطار، حيث تُغادر الرحلة المُتجهة إلى الدار البيضاء في التاسعة مساءً.

وصل د.عبدالحكيم بعد لحظات.. تحدثنا قليلاً، وأهداني بعض كتبه، ثم سألني: في أي رحلة ستعود؟.. أجبته: في رحلة التاسعة مساءً.. نظر إلى ساعته وقال: لم يتبقَ سوى خمس عشرة دقيقة.. والمسافة من هنا إلى المحطة في السيارة تستغرق أكثر من ذلك!

فوجئت لما قال.. كنت أظن أن المحطة قريبة، وأن المسافة لا تستحق أكثر من عشر دقائق على أكثر تقدير.. وكنت أتصور أيضاً أن الرحلات تتأخر بعض الشيء.. فرحلة التاسعة مثلاً لن تنطلق قبل التاسعة والربع.. هذا ما كنت أظنه.. ولكن عبدالحكيم أكد لي أن الرحلات تنطلق في موعدها تماماً.

خرجت من المقهى مسرعاً.. لحقني عبدالحكيم الذي قال وهو يبتسم.. لا تقلق.. ستصل بإذن الله قبل انطلاق القطار.. لكن عليك أن تتخلى عن برجوازيتك وتركب خلفي على الدراجة النارية.. أجبته سريعاً: لتذهب البرجوازية إلى الجحيم.. انطلق بنا على متن دراجتك المباركة يا صديقي.

بصراحة هذه أول مرة أركب فيها دراجة نارية.. وأظن أن منظرنا بدا مُضحكاً.. خاصة أن عبدالحكيم كان يضع حقيبتي الصغيرة بين قدميه.. وأنا أركب في المقعد الخلفي لدراجته وأمسك بيديّ طرف المقعد من الأسفل.. والهواء البارد يصك وجوهنا بشدة.. وشعرنا يتطاير.. ود.عبدالحكيم (وهو أستاذ جامعي وباحث مرموق) يتمايل بدراجته النارية ويدخل مسرعاً ذات اليمين وذات الشمال بين

السيارات المارة.. لأن للضرورة أحكاماً كما تعرفون.

الطريف أن عبدالحكيم قضى دقائق الرحلة وهو يحكي لي عن تاريخ السلفية في مراكش، وتوازناتها، وتياراتها، وكأنه يجلس باسترخاء على شاطئ البحر يشرب الشاي ويدخن الشيشة!!

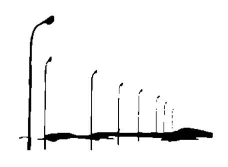
وصلت قبل التاسعة بدقيقة واحدة.. حملتُ حقيبتي وسلمتُ على عبدالحكيم وركضت مسرعاً مخترقاً المحطة ومتوجهاً إلى القطار مباشرة، مددت للموظف تذكرة ركوبي وصعدتُ إلى القطار وهو على وشك التحرك.

كان القطار شبه فارغ، إلا من بعض الركاب هنا وهناك.. جلستُ بمفردي في كبينة تتسع لستة ركاب.. وبعد أن تحرك القطار قمت بإقفال الإضاءة الداخلية للكبينة.. وأخذتُ في الاسترخاء لمدة نصف ساعة تقريباً كي أستعيد بعض النشاط.. ثم قمت من استرخائي وفتحت النافذة.. وإذ بي أرى سواد الليل الذي يخيّم على بعض القرى والبَلدات.. وشعورٌ بالسكينة يملأ المكان.. فتحت جهازي.. وكتبت لصديق:

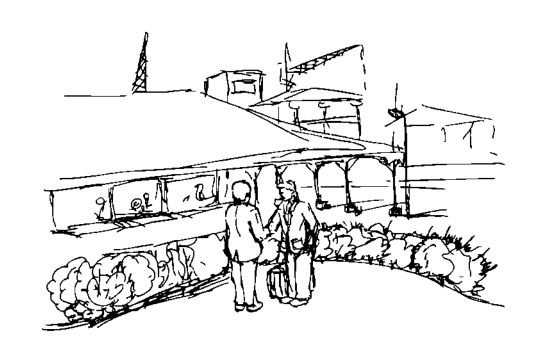
أسترخي الآن في كابينة مظلمة وسط قطار متجه من مراكش إلى الدار البيضاء.. في رحلة هادئة عند منتصف الليل.. يمتزج فيها السواد الممتد والتائه وسط أضواء القرى والبساتين الخافتة، بصوت هدير القطار المندفع وسط الظلام.

أحب كثيراً رحلات القطار الليلية، وتحليق الطائرات الليلية، ولحظات الكتابة الليلية، وكل ما يتماهى مع سكون الليل واسترخائه وروحانيته.

صدقني أيها القابع في عمق الصحراء.. هدوء الليل هو الحل.. ولا شيء سوى ذلك.



جولة على دور النشر..
وحكاية المقهى المشبوه!



5

كنت أنوي زيارة مدينة فاس في هذا اليوم، ولكن فوجئتُ بأن أقرب رحلة لها عبر القطار ستنطلق في الثانية والنصف ظهراً، وبذلك لن أصل إلى فاس إلا قرابة السادسة والنصف مساءً. وهذا يعني أنني لن أستطيع العودة إلى الدار البيضاء في نفس اليوم.. لهذا السبب، ولسبب آخر هو اضطراري لتقديم توقيت رحلتي إلى تونس يومين (من الجمعة إلى الأربعاء)، وهو ما يعني ضرورة أن أنهي عدداً من اللقاءات مع الباحثين الذين لم ألتق بهم بعد.. اتفقت مع الصديق يونس أن نقضي يومنا هذا سوياً في الدار البيضاء، كي نُتِم بقية الأعمال المتبقية لدينا، ونتجول في المناطق التي لم أرها بعد في هذه المدينة.

في العاشرة صباحاً انطلقنا للقاء بعض الباحثين المتخصصين في الدراسات الاجتماعية (السوسيولوجيا)، وذلك في أحد المقاهي بوسط المدينة.

من الجوانب التي تستحق الإعجاب في المغرب كثافة الإنتاج المعرفي، وعمقه، ورصانته. بحيث يمكن لأي باحث أن يجد عشرات المراجع المكتوبة بأقلام مغربية في أي موضوع بحثي يحتاج إليه.. لكن بالطبع ستواجهه مشكلتان: الأولى أن عدداً كبيراً من هذه الدراسات مكتوب باللغة الفرنسية، والثانية أن المراكز البحثية في الجامعات تُجبر الباحثين على تناول موضوعات محلية محضة قد لا تعني كثيراً

القارئ والباحث العربي غير المغربي.. الغريب أن الكثير من هذه الدراسات ـ رغم محليتها وخصوصيتها الشديدة ـ مكتوب أيضاً باللغة الفرنسية!

من اللافت أيضاً وجود (سلاسل كتب) تُصدرها بعض دور النشر المحلية.. ربما من أهمها سلسلة (وجهات نظر) التي تُصدر كثيراً من الدراسات الرصينة ذات الشأن المحلي، وتبيعها بأسعار زهيدة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ درهماً (أي ما يُعادل من ٦ إلى ٨ ريالات).

بعد جلسة طويلة وممتعة مع عدد من الباحثين، خرجت مع يونس عند الواحدة ظهراً للتجول على الأقدام قليلاً، ومررنا على بعض المكتبات الموجودة بوسط المدينة، ثم مررنا بالقرب من (مقهى فرنسا) الذي كنت قد جلستُ به قبل ليلتين بصحبة حسام تمام ود.نبيل عبدالفتاح ود.عبدالحكيم أبو اللوز مع اثنين من جماعة العدل والإحسان.. عَرَضَاً قلت ليونس: كنا قبل ليلتين في هذا المقهى.. عندها حملق بي باستغراب شديد وقال: تقول إنكم جلستم قبل ليلتين في مقهى فرنسا!! قلت له مبتسماً وقد استغربت دهشته: أتمنى ألا نكون قد عرّضنا الأمن القومي للخطر!! أجابني وهو يضحك: بل عرضتم أمنكم القومي أنتم للخطر!!.. هذا المقهى من الأماكن غير المُحترمة في الدار البيضاء! وهو مقهىً معروف بتجمع الشواذ والعاهرات في الليل، ومجرد الجلوس به يُسيء إلى السمعة.. رددت بدهشة: أووف، يا عيب الشوم والله.. لكن المقهى كان مكتظاً بالرجال، ولا أذكر وجود أي نساء بداخله.. المهم أن يونس لم يُفوت الفرصة كي يقضي تلك الظهيرة ساخراً مني على ذلك الموقف.. وأضاف ضاحكاً: في المرة القادمة يجب أن تأخذوا معكم مرشداً سياحياً من سكان الدار البيضاء، بدلاً من أن يجلس سعودي ومصريان وثلاثة مغاربة ـ كلهم من مراكش ـ كي يتحدثوا في السياسة بمقهىً مخصص لقضاء أغراض أخرى!

توجهنا بعد ذلك إلى المدينة القديمة المُحاطة بسور تاريخي ـ كعادة كل المدن القديمة في المغرب، وفي الطريق سألت يونس عن بعض تفاصيل النظام السياسي المغربي.. مثلاً في المغرب لا يوجد منصب (رئيس وزراء أو رئيس حكومة)، بل

يوجد منصب يُسمى (الوزير الأول)، ويحظى هذا الوزير ببعض الصلاحيات الإضافية ذات الطابع التنفيذي والإداري، ولكن من يرأس مجلس الوزراء هو الملك نفسه.

أيضاً تحدثت معه عن طبيعة النظام الملكي في المغرب وتقاليده في الحُكم. لأن العائلة العلوية التي تحكم المغرب تُعد ثاني أقدم سُلالة ملكية لا تزال تحكم في العالم ـ بعد العائلة الملكية الدنمركية، حيث أمضت أكثر من ثلاثمائة وخمسين عاماً في حُكم المغرب. وهي أطول مدة قضتها دولة في حكم هذه المنطقة منذ بدء الإسلام.

وربما من المهم أن أذكر بشكل مقتضب جداً تاريخ الدول والأسر التي حكمت المغرب منذ فجر الإسلام.

* * * *

فالمغرب منذ أن فتحها عقبة بن نافع في عام ٥٠ للهجرة، وصارت بعد ذلك تحت حكم الأمويين، وحتى سقوط الدولة الأموية واضطراب الأوضاع في المغرب لمدة من الزمن تفاوتت فيها الأمور بين السيطرة العباسية وسيطرة بعض القبائل.. حتى استقرت الأوضاع بسيطرة الأدارسة، وما تلاها من دول تعاقبت على حكم المغرب، سأحاول استعراض فترات حكمها بشكل سريع:

١- دولة الأدارسة ـ وهم من آل البيت من سلالة إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ وامتد حكمها أكثر من مائتي عام (١٧٢هـ ـ ٣٧٥هـ / ٧٨٠م ـ ٩٧٤م).. وقاموا ببناء مدينة فاس ـ وعدد كبير من المدن ـ واتخذوها عاصمة لهم.

٢- ثم الدولة المغراوية ـ وهم من الأمازيغ ـ التي حكمت بعد الأدارسة لمدة تقارب خمسة وثمانين عاماً (٣٧٧هـ ـ ٤٦٢هـ / ٩٨٧م ـ ١٠٧٠م). وقد تحالفوا مع الدولة الأموية في الأندلس تارة، ومع الفاطميين تارة أخرى.. واتخذوا من فاس عاصمة لهم.

٣- ثم دولة المرابطين ـ وهم من الأمازيغ ـ التي بدأ بتأسيسها أبو بكر بن عمر، ثم ابن عمه يوسف بن تاشفين، وحكمت المغرب وموريتانيا وشمال غانا ونواحي من الجزائر إضافة إلى الأندلس، وبقيت أقل من ثمانين عاماً (٤٦٥هـ ـ ٥٤٢هـ / ١٠٧٣م ـ ١١٤٧م).. وقاموا ببناء مدينة مراكش، واتخذوها عاصمة لهم.

٤- ثم دولة الموحدين ـ وهم أيضاً من الأمازيغ ـ التي بدأ بتأسيسها محمد بن تومرت، وأتم تأسيسها عبدالمؤمن بن علي، وحكمت المناطق التي سيطر عليها المرابطون، وامتدت لقرابة المائة وعشرين عاماً (٥٤٢هـ ـ ٦٦٧هـ / ١١٤٧م ـ ١٢٦٩م).. واتخذوا مراكش عاصمة لهم.

٥- ثم الدولة المرينية ـ وهم كذلك من الأمازيغ ـ التي حكمت الجزائر وامتد حكمها إلى تونس والمغرب، وهي التي أنهت حكم الموحدين فيها، وقد أسسها أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق، وامتد حكمها للمغرب قرابة المائة وخمسين عاماً (٦٦٧هـ ـ ٨٢٣هـ / ١٢٦٩م ـ ١٤٢٠م)، وقد أعادوا عاصمة الدولة إلى مدينة فاس.

٦- ثم الدولة الوطاسية ـ وهم من أمازيغ أيضاً ـ الذين حكموا مناطق نفوذ الدولة المرينية، وأسسها أبو زكريا محمد الشيخ المهدي، وامتدت لقرابة المائة وثلاثين عاماً (٨٢٣هـ ـ ٩٥٤هـ / ١٤٢٠م ـ ١٥٤٧م). وكانت فاس أيضاً عاصمة الدولة.

٧- ثم دولة السعديين ـ وهم من آل البيت من سلالة محمد (النفس الزكية) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ التي أسسها محمد المهدي القائم بأمر الله، وامتدت لقرابة المائة عام (٩٦١هـ ـ ١٠٦٩هـ / ١٥٥٤م ـ ١٦٥٩م) وأعادت عاصمة الدولة إلى مراكش.

٨- ثم دولة العلويين الفيلاليين ـ وهم من آل البيت من سلالة القاسم بن محمد (النفس الزكية) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ التي بدأ بتأسيسها مولاي علي الشريف ومن ثم ابناه محمد والرشيد، وهذه العائلة تحكم المغرب منذ أكثر من ثلاثمائة وخمسين عاماً (من ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م وحتى اليوم)، وقد أعادوا العاصمة إلى فاس، ثم إلى مكناس، ثم عادت العاصمة مجدداً إلى

فاس، حتى انتقلت العاصمة إلى الرباط في العام ١٩١٢م مع بداية عهد الاستعمار الفرنسي للمغرب.

* * * *

من المفردات الغريبة التي شرح لي يونس معناها - وترد في كثير من الكتب المغربية - هي مفردة (المخزن)، وتعني في الثقافة المغربية (السُلطة) أو (الحكومة).. ففي الكتب التي دَونت التاريخ المغربي يتم الحديث دائماً عن صراعِ المحاور الثلاثة (القبيلة، والزوايا، والمخزن)، ومفردة المخزن ليست اصطلاحاً بحثياً فقط، بل هي شائعة على لسان كل الناس، المتعلم والأميّ. فيشار دائماً إلى السُلطة بكلمة المخزن.. ويبدو أن استخدام هذه المفردة قديم في التراث المغربي، لأنني وجدتُ في بعض المصادر أن السعديين إبان حكمهم للمغرب قبل أكثر من أربعمائة عام كانوا يستخدمون ذات الاصطلاح (المخزن) في الإشارة إلى السلطة.

صراع القوى الذي دار في المغرب عند نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بين المخزن والقبائل والزوايا الصوفية، وأدى إلى ضعف سلطة الدولة وتهديد استقرارها، هو الذي دفع مولاي عبدالحفيظ سلطان المغرب آنذاك إلى توقيع معاهدة الحماية مع فرنسا في العام ١٩١٢م. وقد دخلت القوات الفرنسية تحت ذريعة حماية الملك، وضرورة المشاركة في إدارة المغرب الذي ترتبت عليه ديون هائلة لفرنسا، كي يستطيع الفرنسيون استرداد أموالهم.

وقد امتد الاستعمار الفرنسي للمغرب حتى العام ١٩٥٦م، عندما قررت فرنسا قبل ذلك بعام تنحية السلطان سيدي محمد بن يوسف (هو الملك محمد الخامس والد الملك الحسن الثاني) وتعيين بدلاً منه أحد أفراد العائلة العلوية وهو محمد بن عرفة.. فتحالف الملك مع القبائل وزعماء المقاومة المطالِبة بالاستقلال، وكوّنوا جبهة وطنية عريضة، استطاعت تحقيق استقلال المغرب في العام ١٩٥٦م.

وفي المناهج التعليمية المغربية الحديثة لا يوصف الوجود الفرنسي في المغرب بـ (الاستعمار الفرنسي)، بل توصف تلك الفترة بـ (الحماية الفرنسية).

* * * *

تجولت مع يونس في المدينة القديمة بالدار البيضاء، التي لا تكاد تختلف عن المدن القديمة المغربية الأخرى، بأزقتها، وحوانيتها، ودورها، ومساجدها، سوى أنها أحدث بعض الشيء من تلك المدن.. فالدار البيضاء تُعد من المدن الحديثة في المغرب، وتاريخها لا يعود لأكثر من مائتين وخمسين عاماً. ورغم وجود قرىً قديمة كانت في نفس المنطقة، إلا أن الزلزال الذي ضرب المغرب في العام ١٧٥٥م محا ما تبقى من تلك القرى. وشهد العام ١٧٥٦م البناء الأول للمدينة التي أُطلق عليها بعد تشييدها (الدار البيضاء). وقد بناها السلطان العلوي سيدي محمد بن عبدالله.. لذا ترتبط هذه المدينة بتراث العائلة العلوية التي تحكم المغرب منذ ذلك التاريخ أكثر من أي مدينة أخرى.

ورغم أن مدينة الرباط هي العاصمة السياسية للمغرب، إلا أن الدار البيضاء هي العاصمة الاقتصادية، وهي أكبر المدن المغربية من حيث المساحة، ويسكن بها أكثر من خمسة ملايين مواطن مغربي، يشكلون أكثر من ١٥٪ من سكان المغرب الذين يزيدون على الثلاثين مليوناً.

وبعد أن جلسنا لبعض الوقت في أحد المقاهي بالمدينة القديمة، ذهبنا لأداء صلاة العصر في أحد المساجد التاريخية الذي كان - رغم اتساعه - مكتظاً بالمصلين.. ثم قررنا أن نستقل سيارة أجرة تنقلنا من المدينة القديمة، إلى حيث توجد مكتبة الملك عبدالعزيز، وذلك لرؤيتها ولقاء بعض الباحثين.

المغاربة يُسمون هذه المكتبة بلهجتهم الدارجة (مكتبة عبدالعزيز السعود)، وهي مكتبة عامة وكبيرة، بناها الملك عبدالله بن عبدالعزيز بجوار قصره المُحاذي

للبحر في الدار البيضاء، وتُعد هذه المكتبة أحد فروع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض.. ويعتبرها الباحثون من أهم المكتبات العامة بالمغرب، وذلك لحجم العناوين والمراجع التي تحويها، وحداثة مبانيها، وتوفر كامل الخدمات لمساعدة الباحثين.

تجولت في ردهات المكتبة وأقسامها، وهي تقع في مبنىً من ثلاثة أدوار، وبدا لي أنها معنية أكثر بالعلوم الإنسانية والقانونية واللغوية.. ثم التقينا في مقهى المكتبة ببعض الباحثين الشباب الذين يُعدون رسائل دكتوراه في العلوم السياسية بإحدى الجامعات الفرنسية.

يبدو غريباً لمن يزور المغرب لأول مرة كثافة استخدام المغاربة ـ وخصوصاً المثقفين منهم ـ للغة الفرنسية.. يونس حكى لي أن اللغة السائدة في الدوائر العلمية والبحثية بالمغرب هي اللغة الفرنسية، حتى وإن كان جميع الحضور من المغاربة. ولا يكون حديث الطالب الجامعي مع الدكتور المشرف على رسالته العلمية إلا بالفرنسية. وكذلك في اللقاءات الشخصية والنقاشات الحرة بين المثقفين تكون اللغة الفرنسية هي السائدة. بل ويُنظر إلى من يتحدث العربية نظرة تشكيك في مدى علميّته وقدراته وتأهيله. لذا يضطر الكثيرون للحديث بالفرنسية حفاظاً على سمعتهم العلمية، ولو لم يكونوا مقتنعين بذلك.. أما الطبقات الغنية في المجتمع فهي تتحدث الفرنسية على الدوام كجزء من (البرستيج) الذي لا تستطيع التخلي عنه.

بالنسبة لي أنا العبد الفقير إلى الله، فلا فرق كبيراً عندي بين أن يتحدث الحضور بالفرنسية أو باللهجة المغربية الصرفة. لأنني في كلتا الحالتين لا أدري ما الذي يحكونه! وهذا الأمر أوقعني في عدة مآزق. ففي حالات كثيرة حين يتحدث جمع من المغاربة بلهجتهم المحلية الصرفة ويوجهون الكلام لي، أقع في حرج شديد!. مرة قلت لهم مبتسماً: يا جماعة أحتاج إلى مترجم (مغربي / عربي)!.. وفي إحدى المرات، وبعد جلسة ممتدة مع بعض الباحثين، حانت لحظة الانصراف والسلام على الحضور وتوديعهم.. أحدهم بعد أن سلم عليّ ذكر لي جملة بالمغربية الدارجة لم أفهمها.. في البداية قلت له متسائلاً: عفواً؟.. فأعاد لي نفس الجملة..

قلت له مرة أخرى: أنا آسف لم أفهم ما الذي تقوله!.. عندها ابتسم وقال لي: كنت أقول لك اسمي!.

لفتني أيضاً في اللهجة المغربية وفي العربية الفصيحة المُستخدمة هنا، هو أنها تقلب حرف التاء إلى طاء.. فمثلاً يُقال (طاكسي بدل تاكسي) و (ريبورطاج بدل ريبورتاج)، وهكذا.. وهي على النقيض من اللهجة المصرية التي كثيراً ما تقلب الطاء إلى تاء.

خرجنا من المكتبة وقررنا الذهاب إلى منطقة الأحباس التي تعج بالمكتبات التجارية.. بعد لحظاتٍ من خروجنا أشار يونس إلى مبنىً ضخم مررنا بجواره ويقع مُقابل المكتبة، وقال: هذه أكبر صالة سينما في الدار البيضاء.. رأينا في مدخلها قائمة الأفلام التي تُعرض، وإذ بجميعها - باستثناء فيلم مغربي واحد - كانت أفلاماً فرنسية.. لحظتها قال يونس بمكر: لا بأس أن نختم جولتنا الثقافية المُكثفة ببعض الفسوق.. أجبته ضاحكاً: المشكلة أنه فسوق باللغة الفرنسية، إلا إذا كنت ستتكفل بترجمة هذا الفسوق!.

ونحن في طريقنا إلى حي الأحباس، حكى لي يونس قصة الفيلم المغربي الذي يُعرض، واسمه (حجاب الحب) وكيف أثار ضجة كبيرة في الوسط الثقافي المغربي، حيث اعترض الإسلاميون على مضمون هذا الفيلم الذي يروي قصة فتاة مغربية غير محجبة، وتعيش في أسرة محافظة، ثم قررت هذه الفتاة ارتداء الحجاب لتكسب ثقة مجتمعها، ولكنه كان في الحقيقة وسيلة لتغطية علاقاتها الغرامية.. واعتبر الإسلاميون أن مضمون هذا الفيلم يُشوّه الحجاب، ويُشكك بالمحجبات.

وصلنا إلى حي الأحباس (أو "الحبوس" كما يُسمونه باللهجة الدارجة) ويقع في ضواحي الدار البيضاء، وهو حي بناه الفرنسيون إبان استعمارهم، ولكنهم قاموا بتصميمه على هيئة المعمار المغربي القديم، الذي يتميز بلونه الأبيض، وأقواسه الكبيرة، وقرميده الأخضر.. لذا هو يُشبه في معماره المدينة القديمة، لكن بمبانٍ حديثة وطرق واسعة.. والأحباس تعني الأوقاف، حيث

كانت هذه الأرض موهوبة قديماً للمؤسسة الدينية.

يرتاد حي الأحباس كثير من السياح.. لأنه بات أشبه بالمعرض الدائم للمنتوجات التقليدية والمصنوعات الأثرية ودكاكين بيع الملبوسات والجلود والعطور.

ولكن أبرز ما يحويه حي الأحباس هو المكتبات.. حيث تجد في ثناياه عشرات المكتبات ودور النشر المتراصة.. بالنسبة لي مررت بما يقرب العشرين منها.. ويبدو أنه لا يزال هناك الكثير الذي لم أره.. بعض هذه المكتبات هي مكتبات سلفيّة بالمعنى السعودي (دائماً ما يتم الحديث في المغرب عن "السلفية السعودية" أو "الوهابية" للتميز بينها وبين السلفية المغربية القديمة التي يُعد علال الفاسي أحد أبرز رموزها)، حيث تجد مئات الكتب الدينية لشيوخ وشخصيات سعودية بأسعار زهيدة جداً ـ لكوني أعمل في مجال النشر، أدرك تماماً أنه لا يمكن أن تكون هذه الأسعار أسعاراً تجارية .. فتجد مثلاً كتاباً يقع في مائتين وخمسين صفحة ويُباع بما يُقارب الستة ريالات، ووجدتُ كتاباً يقع في خمسمائة صفحة، وغلافه من نوع التجليد الفني (أي غلاف كرتوني سميك وليس ورقياً) وقيمته تُقارب الاثني عشر ريالاً فقط!

زرنا مقر (المركز الثقافي العربي)، واستمتعنا بالحديث قليلاً مع الأستاذ نزار فاضل صاحب الدار.. ثم توجهت إلى مكتبة جديدة اسمها (دار الطالب الحديثة للكتاب) وكانت عندهم مجموعة واسعة ومهمة من الكتب العربية.. وزرت أيضاً مكتبة كبيرة اسمها (دار الثقافة) يبدو أنها متخصصة في بيع الكتب وليست دار نشر.

بعد هذه الجولة جلسنا في مقهىً شعبي جميل بحي الأحباس.. وعلى وقع الشاي المغربي أبديت ليونس دهشتي من أن الكثافة الإنتاجية عند الباحثين والمؤلفين المغاربة لم يترافق معها وجود عدد كافٍ من دور النشر المغربية المرموقة.. نحن في المشرق لا نعرف إلا المركز الثقافي العربي ـ ويملكه لبناني مقيم بالمغرب هو الأستاذ نزار فاضل، ومقره الرئيسي في الدار البيضاء ـ ودار توبقال، ودار الأمان، دار إفريقيا

الشرق، وربما دار أو اثنتان أخريان.. وهؤلاء هم من يُشاركون في معارض الكتب. في حين أننا نعرف عشرات دور النشر المصرية واللبنانية التي تُشارك في معارض الكتب الدولية على الدوام، رغم أن الإنتاج المعرفي بهاتين الدولتين هو - في أحايين كثيرة - أقل كثافة وجودة مما هو في المغرب.

بدت الشمس على وشك المغيب، وكنا على موعد مع بعض المثقفين في التاسعة مساءً.. فقلتُ ليونس أن المصلحة الوطنية تقتضي ضرورة مراعاة ساعتي البيولوجية، وذلك بأن يسمح لي بالعودة إلى الفندق لمدة ساعة، كي نلتقي بعدها وأنا في نشاط يكفي لاستيعاب ما سيُقال.

عدت إلى الفندق قرابة السابعة والنصف.. وقال يونس أنه سيقضي عملاً سريعاً ثم سيسبقني إلى المقهى الذي سنلتقي فيه.. ولكوني لا أعرف هذا المقهى، وبعد محاولات عديدة لوصف الطريق باءت كلها بالفشل، قال يونس: لا حل سوى أن أنتظرك بقرب مقهى فرنسا ثم نتوجه إلى مكاننا الموعود.. قلتِ له وأنا أودعه: لا تنسى ألا تبتسم أثناء انتظارك بقرب هذا المقهى حتى لا تُفهم خطأً.

* * * *

في التاسعة مساءً كنت مع يونس في المقهى المُحدد برفقة اثنين من المثقفين المغاربة.. تحدثنا في مواضيع شتى، ثم تطرقنا إلى موضوع الصحراء المغربيّة. حيث أبديت لهم ما شعرت به من حساسية المغاربة تجاه هذا الموضوع. حتى أنني ما إن أتحدث مع أحدهم عن الصحراء المغربية والخلاف في الأمم المتحدة حولها، إلا وأقابل بشيء من التوتر، وكأنني مسست الكرامة الوطنية!.

تقع الصحراء المغربية في الجزء الجنوبي من المغرب، وتُطل على المحيط الأطلسي، وعاصمتها مدينة العيون الساحلية. وللصحراء حدود مع الجزائر وموريتانيا، وهي ذات مساحة ضخمة، حيث تمثل قرابة الـ ٤٠٪ من مساحة المملكة

المغربية، إلا أن عدد سكانها لا يتجاوزون الثلاثمائة ألف نسمة ـ المصادر المغربية الرسمية تقول أن عدد سكان الصحراء لا يتجاوز ٧٥ ألف نسمة، وهم من القبائل الصحراوية التي كانت تاريخياً تدين بالولاء للحكم في المغرب، حتى استولى عليها الإسبان في نهاية القرن التاسع عشر بعد أن وجدوها (فارغة) كما يقولون. وبقي المغرب بعد الاستقلال يطالب باستعادتها، حتى انسحبت إسبانيا منها في العام ١٩٧٥م، فقام الملك الحسن الثاني في ذات العام بقيادة المسيرة الخضراء التي ضمت أكثر من ثلاثمائة ألف مواطن مغربي، حيث حملوا المصاحف والأعلام المغربية، وانطلقوا من مدينة أغادير الجنوبيّة، ثم دخلوا منطقة الصحراء سيراً على الأقدام. وبذلك عادت سيادة الصحراء ميدانياً إلى السلطة المغربية، ولكن لم يتم بعد الاعتراف دولياً بسيادة المغرب عليها.. وكانت جبهة البوليساريو المُطالبة باستقلال منطقة الصحراء قد تشكلت عام ١٩٧٣م، أي قبل المسيرة الخضراء بعامين. ومنذ ذاك التاريخ وحتى اليوم والجبهة تُطالب بالاستقلال، وتمارس بعض الأعمال العسكرية، وتتلقى دعمها الرئيس من الجزائر.

طبعاً تجدر الإشارة إلى أن الخلاف على الصحراء ازدادت حدته بعد ظهور مناجم الفوسفات الضخمة، التي تمثل اليوم أحد الموارد المهمة للمملكة المغربية.

المعلومة التي شكلت مفاجأة بالنسبة لي، هي أن القبائل التي تستوطن الصحراء المغربية لا تنتسب للإرث البربري الأمازيغي، بعكس ما كنت أظنه طيلة الوقت. بل هي قبائل تعتز بعروبتها، ويعود نسبها ـ مع وجود خلافٍ في ذلك ـ إلى بعض القبائل العربية التي قدمت للمغرب مع بدء الإسلام.

في العاشرة والنصف غادرنا المقهى، فقررت مع يونس أن نذهب لتناول طعام العشاء في مطعم للوجبات السريعة يقع بعيداً بعض الشيء عن مكاننا ـ مطاعم الوجبات السريعة محدودة جداً في المغرب بعكس ما هي عليه في غالب الدول العربية.. وأثناء الطريق مع سائق أجرة سألت يونس عن بعض شؤون قبائل الأمازيغ. حيث يشكلون أغلبية السكان في المغرب، وتقدر نسبتهم بـ ٦٠٪ من عدد السكان، أما البقية فهم من العرب.

حدثني يونس ـ وهو ينتسب إلى العرب لا الأمازيغ ـ أن القضية العرقية غير حاضرة في المغرب على الإطلاق، وأن الزواج بين العرب والأمازيغ هو أمر شائع ولا توجد تقاليد اجتماعية تعارضه، بل وحتى الأحزاب الأمازيغية المُعتزّة بإرثها وتراثها ولها منطلقات عِرقية، لا تحظى في الانتخابات بأي حضور في الشارع المغربي.. والأمازيغ يتحدثون ثلاث لغات أو لهجات هي: (التاريفيت والتشليحت والتامازيغت)، وكلها لهجات شعبية محضة، وكاد بعضها أن يندثر لولا خدمة الفرنسيين لها بعد الاستعمار، حيث أنشؤوا معاهد خاصة لإعادة إحياء اللغات الأمازيغية وتطويرها.

بعد تناول طعام العشاء قررنا أن نسير على أقدامنا باتجاه وسط المدينة، حيث يقع الفندق الذي أسكن فيه. ورغم طول المسافة التي ربما تجاوزت الثمانية كيلومترات، إلا أن عذوبة الجو المزوجة بلسع البرد المنعش، وثراء الحديث وتشويقه، جعلنا نسير دون وعي بطول الطريق.

تطرقنا في حديثنا لمواضيع شتى، سألته ابتداءً عن الجامعات المغربية وتصنيفها، وعرفت منه أن جامعة محمد الخامس في الرباط تُعد الأضخم، ولكن جامعة الأخوين ـ رغم صِغر حجمها ـ تعتبر الأحدث والأكثر مرموقيّة في المغرب، حتى إن البعض يسميها (هارفارد العربية)، وهي تقع في مدينة إفران الصغيرة والجبلية القريبة من مدينة فاس، وهذه المدينة الصغيرة تكاد تكون ـ بتصميمها وانفتاحها ـ قطعة أوروبية وسط المغرب.

وتحدثنا عن ظاهرة التشيّع التي أبدت المغرب حساسية مفرطة تجاهها، حتى إنها قامت بخطوة لم تُقدم عليها أي دولة عربية أخرى، وتمثلت في قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران.. ورغم وجود تشييع حقيقي في المغرب ـ يتحدث البعض عن كونه بلغ بضعة آلاف ـ إلا أن الكثيرين لا يرون أنه شكل ظاهرة تدعو للقلق.. لكن الغريب هو وجود بعض المتشيعين ممن لهم حضور في الوسط الثقافي. من أهمهم شخصية لها إنتاجات فكرية مرموقة ومعروفة في العالم العربي، هو الباحث المغربي إدريس هاني.

ومن المعلومات التي لم أكن أتوقعها أن الدراسة النظامية في المغرب هي مُختلطة على الدوام، بحيث تجد الأولاد والبنات في فصل واحد طوال مراحلهم الدراسية.

أيضاً أبديت ليونس اندهاشي من أنني وجدت مدينة الدار البيضاء مُحافظة بشكل لا تكاد تختلف فيه عن القاهرة، من ناحية انتشار الحجاب، ومقدار الحشمة في الشارع. حتى أنني طوال الأيام الخمسة التي قضيتها، وما تخللها من جولات طويلة في شوارع المدينة وطرقاتها، لم أرَ مشهداً فاضحاً واحداً. وهي بذلك أكثر حشمة من مدن عربيّة كثيرة. رغم أن سمعتها - ربما في الخليج على وجه الخصوص - لا توحي بهذا الشيء. وهو أمر ربما يرتبط بنوعية السياح الخليجيين الذين يأتون إلى الدار البيضاء. الأمر الذي انعكس دون شك على سمعة الخليجيين عند سكان هذه المدينة، بعد أن باتوا يرون كثيراً منهم من الرواد الدائمين للعالم السُفلي.

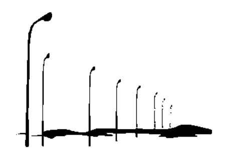
عند ذلك حدثني يونس عن موضوع (الدعارة) في المغرب، حيث قامت وزارة الصحة المغربية بتكليف (مجموعة الأبحاث والدراسات السوسيولوجية) - التي يعمل بها - بإعداد دراسة عن ظاهرة الدعارة في المغرب.. عندها قال يونس وهو يضحك: كان من حظي السيئ أن كلفني المركز لأكون أحد أعضاء الفريق البحثي.. ومضى يحكي لي عن غرابة هذا العالم، وعن بعض النتائج التي توصل إليها المركز.

بقينا نسير على أقدامنا لأزيد من ساعة ونصف، حتى تسرب إلينا التعب، ولكن الهدوء الذي يخيم على المدينة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، والشوارع الفارغة، ونسائم الجو العليلة، كانت تحفزنا على مواصلة المسير دون توقف.

من ضمن عاداتي التي لم أستطع عنها فكاكاً، هي كتابة (رسائل جوال) تحوي انطباعات عن بعض المواقف أو الشخصيات أو التجارب الغريبة التي تحدث لي أثناء الرحلات، وأقوم بإرسالها إلى العديد من الأصدقاء (وبسبب ذلك انتهى السقف الائتماني لجوالي والبالغ أربعة آلاف ريال خلال خمسة أيام فقط!.. حينها اكتشفت

ـ بعد أن توقف جوالي طبعاً ـ أن سعر دقيقة المكالمة من المغرب إلى الرياض تبلغ ثمانية عشر ريالاً!!.. فيما الاتصال من أبعد منطقة بالعالم إلى الرياض لا تتجاوز سعر دقيقتها عادة أربعة أو خمسة ريالات!).

أرسلتُ لبعض الأصدقاء رسالة قصيرة عن جولتنا الطويلة على الأقدام.. أحدهم رد علي برسالة ماكرة قال فيها: من الصعب أن تجمع مفردات (استمتاع، وآخر الليل، والدار البيضاء) في رسالة واحدة، وتُريد في نفس الوقت أن نُحسن الظن بك!.. رددت عليه: قاتلك الله!.



قصة الحركة الإسلامية في المغرب



6

أنوي قضاء يوم الثلاثاء في مدينة الرباط، وسيتخلل جولتي عدد من اللقاءات مع بعض رموز التيار الإسلامي.. لذا أود أن أخصص هذه الفقرة للإشارة المقتضبة إلى بعض تاريخ الحركة الإسلامية المغربية وتقسيماتها.. فيما أخصص الفقرة التالية للحديث عن تفاصيل جولتي في مدينة الرباط.

* * * *

ربما لم نكن نحن أبناء المشرق العربي - كما يحلو للمغاربة تسميتنا - معنيين كثيراً بمتابعة نشأة وتطور الحركة الإسلامية المغربية، لذا قد تبدو لنا هذه الحركة - بتشظياتها - غير واضحة المعالم.

وإذا ما تجاوزنا الحديث عن جماعة العدل والإحسان - ذات المنزع الصوفي - التي يتزعمها الشيخ عبدالسلام ياسين، لأنني تحدثت عنها سابقاً، ولكونها تُمثل مساراً مختلفاً عن بقية جسم الحركات الإسلامية.. فإن ما يجمع بقية الحركات الإسلامية المغربية هو أن غالبها خرج من رحم واحد، وهو رحم حركة (الشبيبة الإسلامية) التي أنشأها عبدالكريم مطيع الحمداوي في عام ١٩٧٠م.. وكانت هذه

الحركة امتداداً طبيعياً لجماعة الإخوان المسلمين في المشرق العربي، لكن ربما بصورة أكثر راديكالية، حيث كانت تحمل نَفَساً سياسياً ثورياً، ونزعة تصعيدية تجاه السُلطة. وقد يكون من أسباب ذلك التاريخ اليساري لزعيمها عبدالكريم مطيع.

في عام ١٩٧٥م بدأت أعنف عملية لضرب حركة (الشبيبة الإسلامية)، وذلك عقب الاغتيال الغامض للزعيم اليساري عمر بن جلون. حيث اتُهم عبدالكريم مطيع وحركة الشبيبة الإسلامية بالوقوف خلف الاغتيال. ونتج عن ذلك اعتقالات في صفوف الشبيبة الإسلامية، وهروب عبدالكريم مطيع إلى السعودية - التي عاش فيها زمناً طويلاً، قبل أن ينتقل للعيش في ليبيا التي يستقر بها حتى اليوم .. وبدأ عبدالكريم مطيع بالتحريض على النظام المغربي، وتورط في دعم أعمال عنفية ضد النظام، بل وخرق الإجماع الوطني بدعوته لانفصال الصحراء المغربية عن مملكة المغرب.

وخلال السنين التي تلت ضرب حركة الشبيبة الإسلامية عام ١٩٧٥م، بدأت رحلة التشظي والانقسامات داخل الحركة الإسلامية المغربية.. وسأحاول استعراضها باختصار شديد:

- خرج أولاً عن إطار الشبيبة الإسلامية من سُمّوا بمجموعة الستة، وكان من أبرزهم عبدالإله بن كيران، ومحمد يتيم، وحدث ذلك في أواخر السبعينيات.. ونشأت خصومات فكرية وحركية بين هذه المجموعة وبقية جسم الشبيبة الإسلامية.. وتطورت هذه المجموعة حتى قرر عدد من أبرز وجوهها (وهم عبدالإله بن كيران، ومحمد يتيم، وسعدالدين العثماني، وعبدالله بها) في العام ١٩٨١م تأسيس (الجماعة الإسلامية)، وأجرت هذه الجماعة مُراجعات جذرية لمواقف الشبيبة الإسلامية، وقررت التخلي عن العمل السري، والحرص على العلنيّة والمشروعيّة القانونيّة، والتركيز على العمل الثقافي والتربوي والاجتماعي.

استطاعت الجماعة الإسلامية خلال عدة أعوام ضم العدد الأكبر من أفراد حركة الشبيبة الإسلامية.. ثم قررت هذه الجماعة في العام ١٩٩٢م تحويل اسمها من

(الجماعة الإسلامية) إلى (حركة الإصلاح والتجديد). وكان الأمين العام للجماعة الإسلامية في بداية تكوينها هو محمد يتيم (من العام ١٩٨١م وحتى ١٩٨٥م) ثم عبدالإله بن كيران (من العام ١٩٨٥م وحتى ١٩٩٤) أي بعد تحولها إلى اسم (حركة الإصلاح والتجديد)، ثم عاد محمد يتيم ليقود الأمانة العامة (من العام ١٩٩٤م وحتى ١٩٩٦م).

ـ وخرج أيضاً عن إطار حركة الشبيبة الإسلامية مجموعة من كوادرها، وكان في مقدمتهم شخصيتان مُهمتان هما (محمد المرواني، ومصطفى المعتصم). حيث أسست هذه المجموعة بمدينة الرباط في أكتوبر من العام ١٩٨١م (حركة الاختيار الإسلامي).. وبدا واضحاً أن لهذه الحركة ـ رغم مرجعيتها الإسلامية ـ مزاجاً يسارياً وثورياً، وتعاطفاً مع تجربة الثورة الإيرانية.. واستمرت هذه المجموعة متماسكة حتى العام ١٩٩٥م، حين أقدمت قيادتها على فصل ثلاثة من قياديي الحركة، وهو ما نتج عنه انشقاق داخل صفوف (حركة الاختيار الإسلامي)، وتمثل في ولادة مجموعتين اثنتين: الأولى بقيادة محمد المرواني، وصار اسمها (الحركة من أجل الأمة).. والثانية بقيادة مصطفى المُعتصم، وصار اسمها (جمعية البديل الحضاري).

وفيما بقيت (الحركة من أجل الأمة) دون رخصة قانونية رغم محاولاتها الحثيثة، استطاعت (جمعية البديل الحضاري) ـ بعد نضال طويل من قائدها ـ الحصول على رخصة حزب سياسي رسمي في العام ٢٠٠٤م، وبذلك تحول اسمها إلى (حزب البديل الحضاري)، ولكن هذا الحزب سرعان ما تعرض للحل من قبل السلطة بعد القبض على أمين عام الحزب (مصطفى المعتصم) والناطق الرسمي باسم الحزب (محمد الأمين الركالة)، وذلك في فبراير من العام ٢٠٠٨م، بعد اتهامهما مع أربعة آخرين ـ أحدهم محمد المرواني أمين عام الحركة من أجل الأمة ـ بتشكيل خلية عسكرية وتشريع العُنف، وهي التي أُطلِق عليها اسم خليّة (بلعيرج).

ـ هناك مجموعة من أفراد الشبيبة الإسلامية رفضت الانخراط في الصراع الذي حصل بين الجسم الرئيسي للشبيبة الإسلامية الذي كان يقوده عبدالكريم مطيع من خارج المغرب، ومجموعة الستة التي انفصلت عنها.. فسُميت هذه المجموعة

بـ (مجموعة التبيُّن)، فقرر عبدالكريم مطيع فصلها من حركة الشبيبة الإسلامية، فكوّن بعض أفراد هذه المجموعة فيما بعد (جمعية الشروق الإسلامية) التي اعتُقل بعض أفرادها أمنياً عام ١٩٨٥م، ولم تُمنح رخصة رسمية للعمل.

ـ أيضاً انفصلت عن الشبيبة الإسلامية مجموعة صغيرة في الدار البيضاء اسمها (مجموعة التوحيد).

ـ وهناك مجموعات محدودة انفصلت عن حركة الشبيبة الإسلامية، وقررت الانضمام إلى جماعة العدل والإحسان التي يقودها الشيخ عبدالسلام ياسين.

ـ في العام ١٩٩٤م قررت أربع جمعيات إسلامية القيام بعمل وحدوي. ومن ضمن هذه الجمعيات الأربع (جمعية الشروق الإسلامية) و (مجموعة التوحيد)، وكلتاهما كانتا قد انفصلتا عن (حركة الشبيبة الإسلامية).. إضافة إلى مجموعتين لم يكن لأفرادهما علاقة بحركة الشبيبة الإسلامية، وهما: (جمعية الدعوة بفاس) التي تأسست في العام ١٩٧٦م على يد الدكتور عبدالسلام الهراس مع مجموعة من الإسلاميين. و (الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير) التي تأسست أيضاً في العام ١٩٧٦م على يد الدكتور أحمد الريسوني.

هذه الجمعيات الأربع قررت الاندماج في العام ١٩٩٤م تحت اسم (رابطة المستقبل الإسلامي).. وأصبح الدكتور أحمد الريسوني رئيساً لهذه الرابطة.

وكادت (حركة الاختيار الإسلامي) أن تنضم لهذا العمل الوحدوي، ولكن تعثرت المفاوضات معها بسبب الخلاف مع إحدى الجمعيات الأربع.

ـ في العام ١٩٩٦م قررت مرة أخرى مجموعتان كبيرتان هما (رابطة المستقبل الإسلامي.. التي يقودها د. أحمد الريسوني)، و (حركة الإصلاح والتجديد.. التي قادها محمد يتيم وعبدالإله بن كيران) القيام بعمل توحيدي جديد، وذلك تحت اسم (حركة التوحيد والإصلاح).. وقد حددت الحركة الجديدة فترة زمنية مدتها عامان ـ أسمتها المرحلة الانتقالية ـ لإنجاز الدمج الكامل لقواعد رابطة المستقبل

وحركة الإصلاح والتجديد، والعكوف على إعداد قانون داخلي ووثائق الدمج التنظيمي والفكري والتصوري.

وقد تولى الأمانة العامة للحركة في الفترة الانتقالية (بين ١٩٩٦م و ١٩٩٨م) الدكتور أحمد الريسوني.. وقد استطاعت الحركة تجاوز هذه المرحلة الصعبة بنجاح، واستطاعت أيضاً أن تقوم في هذه الفترة الانتقالية بالتهيئة لتأسيس إطار سياسي حزبي مُنفصل إدارياً عن الحركة، وذلك عبر الاندماج مع أحد الأحزاب السياسيّة القائمة والقريبة فكرياً من الحركة، ثم تكلل ذلك الاندماج بتأسيس (حزب العدالة والتنمية) في العام ١٩٩٨م. وبذلك صار لهذه الحركة الإسلامية الكبيرة واجهتان تنظيميتان مُنفصلتان تماماً عن بعضهما، هما (حركة التوحيد والإصلاح) وتقوم بمهام العمل التربوي والاجتماعي والثقافي، و(حزب العدالة والتنمية) ويقوم بمهام العمل السياسي.

بعد انتهاء الفترة الانتقالية، انتُخب د.أحمد الريسوني لقيادة الفترة الأولى من عُمر (حركة التوحيد والإصلاح) التي امتدت من العام ١٩٩٨م إلى العام ٢٠٠٢م.. وفي العام ٢٠٠٢م انتُخب الريسوني مرة أخرى لقيادة فترة ثانية وأخيرة للحركة (تمتد من العام ٢٠٠٢م وحتى ٢٠٠٦م).. ولكنه في العام ٢٠٠٣م، وبعد عام من انتخابه لفترة ثانية، أقدم د.الريسوني على الاستقالة من الأمانة العامة للحركة، وذلك عقب الضجة الكبيرة التي حدثت إثر حوار نُشر له مع صحيفة فرنسية بتاريخ ١٤ مايو ٢٠٠٣م - أي قبل تفجيرات الدار البيضاء بيومين فقط، قال فيه أن الملك محمد السادس ليس أهلاً لإمارة المؤمنين، وهو ما يُعد في السياسة المغربية تجاوزاً للخطوط الحمراء، وربما عرّض حركة التوحيد والإصلاح - وربما حزب العدالة والتنمية أيضاً - للحل، خصوصاً أنه تزامن مع تفجيرات الدار البيضاء، التي أحدثت توتراً كبيراً عند السُلطة، بحيث كانت مُستعدة لاتخاذ قرارات جذريّة وتصعيديّة تجاه كُل من يُشكك في النظام الملكي المغربي.. ورغم أن الريسوني نفى هذه التصريحات، وأكد أن الصحيفة تقوّلت عليه، إلا أنه مع ذلك فضّل الاستقالة من منصب أمين عام الحركة، خاصة بعد أن دخل على الخط أمين عام حزب العدالة والتنمية د.عبدالكريم

الخطيب الذي انتقد بشدة تصريحات الريسوني، وذلك في محاولة لتحييد موقف الحزب.. وبعد استقالة الريسوني، انتُخب بدلاً عنه نائبه المهندس محمد الحمداوي، الذي استمر أميناً عاماً حتى نهاية الفترة في العام ٢٠٠٦م، ثم انتُخب الحمداوي لفترة ثانية تمتد حتى العام ٢٠١٠م.

- بدأت فكرة تأسيس حزب العدالة والتنمية لدى قيادات حركة التوحيد والإصلاح من أجل فك التشابك المضر بين العمل الدعوي والعمل السياسي، وسعياً لخلق هيكل حزبي مُستقل عن الحركة يُمارس بحرية كاملة مهام العمل السياسي.. فيما يتبقى العمل التربوي والاجتماعي والثقافي من ضمن واجبات الحركة.

ومن أجل تفادي القلق الدائم من أي واجهة سياسية للإسلاميين، نشأت فكرة الدخول في شراكة حزبية مع أحد الكيانات السياسية المقبولة عند السُلطة.. وحصل ذلك بعد التقارب والاتفاق مع أحد القيادات التاريخيّة للاستقلال في المغرب، وهو الدكتور عبدالكريم الخطيب.

وكان د. الخطيب أحد قيادات (الحركة الشعبية) التي تأسست عام ١٩٥٩م.. وأصبح رئيساً للبرلمان المغربي في العام ١٩٦٣م.. ولكن في العام ١٩٦٥م رفض الخطيب قرار الملك بإعلان حالة الطوارئ.. وبسبب ذلك ترك رئاسة البرلمان. ثم توسعت خلافاته مع (الحركة الشعبية). لذا قرر مع مجموعة من قيادات الحركة الشعبية الانشقاق عنها في العام ١٩٦٧م، وتأسيس كيان سياسي جديد اسمه (الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية).

ورغم أن للدكتور عبدالكريم الخطيب نزعة إسلامية واضحة، إلا أن كيانه السياسي الجديد لم يحظَ بامتداد شعبي كبير. وبسبب اعتراضه على ما اعتبره تلاعباً في العمليات الانتخابية، قرر كيانه الحزبي مُقاطعة الانتخابات البرلمانية لمدة قاربت الثلاثين عاماً.. وفي العام ١٩٩٦م ارتأت قيادة (حركة التوحيد والإصلاح) الدخول في شراكة مع د.الخطيب، وذلك عبر ضم قطاعات واسعة من كوادر (حركة التوحيد والإصلاح) إلى (الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية).. وبناءً على

ذلك تم عقد مؤتمر شعبي في أواخر العام ١٩٩٦م، شكل تدشيناً لهذه الشراكة التي أنتجت حصول الحركة الشعبية الدستورية على أربعة عشر مقعداً في الانتخابات النيابية التي عُقدت في العام ١٩٩٧م.. وفي العام ١٩٩٨م قرر المجلس الوطني لـ (الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية) تغيير اسم الحركة إلى (حزب العدالة والتنمية).

وبقي د.عبدالكريم الخطيب أميناً عاماً لحزب العدالة والتنمية حتى العام ٢٠٠٤م، حين رفض ترشيحه مُجدداً لمنصب الأمين العام، وذلك لظروفه الصحيّة. وانتخب بدلاً عنه نائبه د.سعدالدين العثماني الذي استمر أميناً عاماً للحزب حتى العام ٢٠٠٨م.

وحين انعقد المؤتمر الوطني السادس لحزب العدالة والتنمية في يوليو من العام ٢٠٠٨م، وبحضور قرابة ١٦٢٨ كادراً حزبياً ـ من ضمنهم قرابة ٢٠٠ امرأة ـ وسط تغطية إعلامية مكثفة، وحضور عدد من قيادات الأحزاب السياسية الأخرى في العالم العربي. كان من أبرز مهام هذا المؤتمر انتخاب أمين عام للحزب، وكانت كل التوقعات والاستطلاعات والتغطيات الصحفية تشير إلى الفوز السهل لسعدالدين العثماني في تولي أمانة الحزب لدورة ثانية.. ولكن شهد المؤتمر مداخلات عديدة انتقدت قيادة سعدالدين العثماني في المرحلة السابقة، وهو ما قلب المزاج الانتخابي، ونتج عنه فوز عبدالإله بن كيران بحصوله على ٦٨٤ صوتاً، في مقابل ٤٩٥ صوتاً لسعدالدين العثماني. وشكل ذلك مفاجأة لكل المراقبين. وفاجأ أيضاً قيادات الحزب على وجه الخصوص. وبذلك صار عبدالإله بن كيران أميناً عاماً للحزب، وانتُخب بعد ذلك د.سعدالدين العثماني رئيساً للمجلس الوطني في الحزب.

وبعد انتهاء المؤتمر بأيام، توفي د.عبدالكريم الخطيب رحمه الله بعد معاناة طويلة مع المرض.

ـ يُعد د.سعدالدين العثماني من الشخصيات المرنة والهادئة والميالة إلى عقد التوافقات مع الأطراف السياسية، فيما يُعد عبدالإله بن كيران من القيادات

المُشاكسة داخل الحزب، أما المحامي مصطفى الرميد (رئيس الكتلة البرلمانية لحزب العدالة والتنمية) والشيخ المثقف والبرلماني أبو زيد المقرئ الإدريسي فيُعدان من أبرز الصقور داخل الحزب.

- في الانتخابات النيابية التي عقدت في العام ٢٠٠٢م، أنزل حزب العدالة والتنمية مرشحيه في ٥٦ دائرة انتخابية من أصل ٩١ دائرة.. وكانت النتيجة حصوله على ٤٢ مقعداً في البرلمان.

أما في انتخابات ٢٠٠٧م فأنزل حزب العدالة والتنمية مرشحيه في كل الدوائر الانتخابية تقريباً (في ٩٤ دائرة من أصل ٩٥)، وكان مُتوقعاً أن يفوز بقُرابة السبعين مقعداً، ولكنه لم يحصل سوى على ٤٧ مقعداً فقط.

- من أكثر الأمور غرابة هو الموقف الحاد والعنيف الذي يحمله المؤسس التاريخي للحركة الإسلامية المغربية (عبدالكريم مطيع) تجاه حزب العدالة والتنمية. حيث لا يتردد في وصفهم بأنهم شراذم تحالفوا مع السلطة من أجل مكاسب دنيوية رخيصة!، وأنهم دخلوا في لعبة استخباراتية دنيئة مع بعض رجالات النظام القمعي في المغرب، وسوى ذلك من أوصاف.. وعبدالكريم مطيع يقيم منذ زمن في ليبيا، ويدير منها ما تبقى من أتباع لحركة الشبيبة الإسلامية في المغرب. رغم أن كثيراً من المراقبين يرون أن الوجود الشعبي والحركي للشبيبة الإسلامية قد انتهى منذ زمن طويل.

ولعُنف الموقف الذي يبديه مطيع من حزب العدالة والتنمية، سأورد بعضاً مما كتبه في ذلك.. يقول عبدالكريم مطيع في سياق إشارته إلى تأسيس حزب العدالة والتنمية:

((ثمة أحزاب أسستها السلطة في ظروف خاصة للدفاع عن مؤسساتها ولضرب أعدائها؛ وهي - بذلك - أجهزة أمنية موازية تقوم بما تعجز عنه الأجهزة الرسمية. ويقوم بالإشراف عليها عبدالكريم الخطيب بمساعدة أصهاره وأقاربه في الاستخبارات الداخلية والخارجية والدَرَك الملكي، وشأن هذه الأحزاب كلها أن

تُضخمها السُلطة في وقت الحاجة إليها، وتُحجِّمها تمثيلاً وممارسةً في فترات الاستغناء عنها.. وتأتي بعد ذلك عملية تفريخ لأحزاب وحركات أطلقت على نفسها صفة "الإسلامية" لم نر من إسلاميتها في المجال السياسي والدعوي إلا قشوراً ومظاهر من قمصان وكحل وتعطر، مع تصرفات ثعلبية يحسدها عليها الذئاب)).

ويضيف: ((ثم اقتضت مصلحة السلطة أن تُضخم إحدى هذه الشراذم بضمّها إلى حزب الخطيب ويُطلق عليها اسم "العدالة والتنمية". (...) لقد كان لتضخيم هذه الشرذمة تحت مظلة وعاء حزبي مُصطنع أهداف كثيرةٌ، من أهمها:

* محاولة تذويب التيار الإسلامي الصادق واستئصاله من الساحة.

* إذكاء روح التنافس على المناصب والمكاسب لدى الشراذم الأخرى المُتساقطة من الحركة الإسلامية، والتي تسعى للحصول على تراخيص حزبية، والتلويح لها بما ينتظرها من نعيم إِنْ دخلت في منافسة جادة وتسابق إلى (الغنيمة!) مع شرذمة الخطيب.

* تلويث الساحة السياسية، وجعل المواطنين ينفرون من الدعوة الإسلامية وتياراتها التي تتكالب على المناصب والمكاسب المالية، لاسيما وقد رأوا بأعينهم بعض منتحليها ينتقلون بجرة قلم من أكواخ الأحياء الشعبية إلى الفيلات والقصور، ومن ركوب الحافلات العمومية إلى السيارات الفخمة، ومن ضنك المعيشة إلى رفاهية الوفرة والترف)).

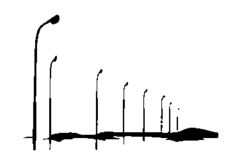
كلام عبدالكريم مطيع هذا ـ وهو منشور في موقعه الإلكتروني ـ يعكس الطبيعة الحادة والعنيفة التي تأسست عليها الشبيبة الإسلامية، والنزعة التخوينيّة الموتورة لزعيمها تجاه كل من يرى أن مصلحة الحركة الإسلامية باتت في اتباع مسار سياسي آخر، يختلف عما تعود عليه مؤسسها.

ـ بودي أن أشير إلى نوع من التمايز الذي لمسته في تنوعات الحركة الإسلامية المغربية.. وهو ليس تمايزاً سياسياً أو اجتماعياً أو حركياً، بل هو تمايز عقائدي..

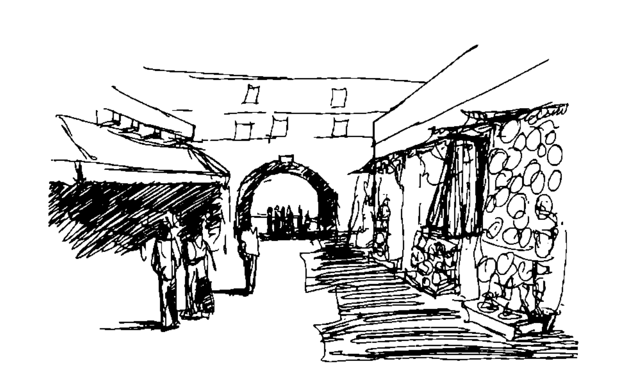
بحيث يمكن الحديث عن وجود نسبي لاتجاهين ينتمي إليهما غالبية التيار الإسلامي في المغرب، وهما: (الاتجاه الصوفي في العقائد) و (الاتجاه السلفي في العقائد).

وإذا كان المقصود بـ (الاتجاه الصوفي في العقائد) يبدو واضحاً من ناحية العلاقة بالأولياء والقبور والتبرّك والتوسل وبعض الاختيارات العقائدية. حيث ينتظم هذا الاتجاه غالباً في ثلاثية شهيرة دائماً ما تُردد في المغرب، وهي (مالكية المذهب، وأشعرية العقيدة، وصوفية الجُنيد)، بحيث تُمثل هذه الثلاثية العقيدة الرسمية للدولة المغربية، وتنتمي إليها قطاعات واسعة من الحركة الإسلامية، وعلى رأسها (جماعة العدل والإحسان) التي يتزعمها الشيخ عبدالسلام ياسين. وكذلك (الحركة من أجل الأمة) و (حزب البديل الحضاري) اللذان ينصّان على الالتزام بهذه الثلاثية.

فإن المقصود بـ (الاتجاه السلفي في العقائد) لا يعني بالطبع (التيار السلفي) وفق التعريف الشائع في الوسط الإسلامي. لأن هذا التيار لم يعد يقتصر على (الاختيار العقائدي)، بل صار له موقف سياسي، ومنهجية في التفكير والعمل، وطريقة في التعامل مع التراث، وسوى ذلك من مُحددات للتيار السلفي الموجود اليوم في العالم العربي.. لكن المقصود بـ (الاتجاه السلفي في العقائد) هو الموقف المتحفظ تجاه الطرق الصوفية، والرافض لطبيعة علاقتها بالأولياء والصالحين، والمُتقارب مع التيارات السلفيّة في الاختيارات العقائدية، وسوى ذلك.. وتُحسب اليوم غالب قيادات وكوادر (حزب العدالة والتنمية) و (حركة التوحيد والإصلاح) على هذا الاتجاه.



في قاعة البرلمان.. أتأمل..
وأردد: (ربنا يطعمنا!).



7

قررت أن أتوجه هذا اليوم (الثلاثاء ٢٨ إبريل) إلى العاصمة الرباط على متن القطار الذي سينطلق في الساعة الثانية عشرة ظهراً.. ذلك لأنني عقدت موعداً صباحياً في الدار البيضاء مع د.محمد ضريف.

يُعد الدكتور محمد ضريف من أهم الباحثين والمُهتمين برصد ودراسة الحركة الإسلامية في المغرب خصوصاً، والعالم العربي عموماً.. وقد أصدر أكثر من عشرة كتب في هذا المجال. وله حضور مرموق في الدوائر البحثية والعلمية.. وهو ذو خلفيّة يساريّة. ولكنه يُعد من المُعتدلين والمتصالحين مع الحالة الإسلامية.

التقيت في الساعة العاشرة صباحاً الدكتور محمد ضريف في مقهىً بوسط الدار البيضاء، وامتد لقاؤنا قرابة الساعة والنصف، سألته خلالها عن بعض تفاصيل المشهد الإسلامي المغربي، وعن تقييمه للحركات الإسلامية النشطة في الساحة.. وقد فوجئت برأيه الذي يقول فيه أن (جماعة العدل والإحسان) بتقليديتها، وامتدادها الصوفي، وقِلّة النُخب بين أعضائها، هي برأيه أكثر نُضجاً وتطوراً فكرياً من (حزب العدالة والتنمية)!.. ورغم أنني حاولت سماع كامل مبرراته تجاه هذا التفضيل، إلا أنني لم أجد فيه ما يُقنعني.

في الساعة الثانية عشرة كنت على متن القطار المتوجه إلى مدينة الرباط.. هذه المدينة التي كانت في أساسها مجرد حصن لرِباط الجنود، وقد أسسها المرابطون، وبعد ذلك قام الموحدون بتوسيع حِصنها وجعلها من أهم المواقع الحصينة للجيش الموحدي.. لذا فإن أشهر معالم المدينة قلعتها الحصينة التي تُسمى (قلعة أوداي) المُطلة على مَصبّ نهر أبي رقراق في المحيط الأطلسي. ويفصل نهر أبي رقراق بين العاصمة الرباط ومدينة سلا القديمة التي بناها الأدارسة، بحيث تقع هاتان المدينتان على الضفتين المتقابلتين لمُلتقى النهر مع البحر.

خلال رحلة القطار التي تمتد لساعة، حاولت قضاء الوقت بقراءة بعض حوارات محمد المرواني (أمين عام الحركة من أجل الأمة) المجموعة في كتاب، لأنني كنت قد اتفقت مع الأستاذ أحمد ساسي -أحد أعضاء المكتب السياسي للحركة- على أن نلتقي مساء اليوم في العاصمة الرباط.

في قرابة الساعة الواحدة والربع مساءً كان أحد أعضاء حزب العدالة والتنمية في انتظاري على بوابة المحطة ليقلني إلى مقر الحزب، حيث كنت على موعد مع الأستاذ عبدالإله بن كيران أمين عام الحزب.

والأستاذ عبدالإله بن كيران من مواليد عام ١٩٥٤م، وينتمي إلى عائلة عربية كبيرة من مدينة فاس، وهو متخرج من شعبة الفيزياء بكلية العلوم، ويُعد من أكثر شخصيات الحركة الإسلامية إثارة للجدل.. إذ تزعم مشروع انفصال مجموعة الستة عن جسم الشبيبة الإسلامية.. وتبنى بعد ذلك فكرة محاربة السريّة. والدعوة إلى العمل العلني القانوني المفتوح. ومع ذلك فقد اعتقل في بداية الثمانينيات عدة مرات.

ومن أهم ما يُذكر عن عبدالإله بن كيران أنه أقدم في العام ١٩٨١م على خطوة استباقية جريئة، كان يختلف معه فيها أغلب رفاقه المؤسسين.. حيث إنه رغم انفصال مجموعة الستة عن جسم الشبيبة الإسلامية في أواخر السبعينيات، والبدء بتأسيس تنظيم جديد اسمه (الجماعة الإسلامية). إلا أن هذه المجموعة لم

تُعلن صراحة انفصالها عن (الشبيبة الإسلامية). وذلك بسبب القمع العنيف الذي كانت تتعرض له الشبيبة من السُلطة. وخشية من أن يُحسب إعلان الانفصال في هذا التوقيت على أنه خذلانٌ للحركة الأم (الشبيبة) في أحلك مراحلها، ومداهنة وتقرّب للسلطة.. ولكن عدم الإعلان هذا كان سيُعرّض (الجماعة الإسلامية) المُتشكلة حديثاً ـ بقواعدها الواسعة ـ لضربة عنيفة من السُلطة، لأنها ستبقى محسوبة على الشبيبة الإسلامية، حتى إن بعض قادتها تعرضوا بالفعل للاعتقال والمطاردة. لكن الجماعة الإسلامية أصرّت على تغليب البُعد التضحوي على الواقعية السياسية، وهو ما كان سيُحمّلها تبعات أفعال ومواقف حركة الشبيبة رغم أنها باتت تختلف معها جذرياً في موقفها السياسي من النِظام.. فما كان من عبدالإله بن كيران إلا أن قام مُنفرداً وبشكل مُفاجئ ـ ودون علم وقبول بقية قيادة الجماعة ـ بإعلان انفصالهم عن الشبيبة.. وهو بهذا التصرّف استطاع أن يجعل قادة الجماعة الإسلامية أمام الأمر الواقع. فإما القبول بإعلان الانفصال، أو نفيه.. وبتصرفه هذا أيضاً قَبِل بن كيران أن يتحمل وحده كل الشتائم التي طالته لأنه تخلى عن (الشبيبة الإسلامية) في أصعب ظروفها. ولكنه في المقابل حمى جسم جماعته من الضرب والاعتقال والقمع دون مبرر، وكفى رفاقه مؤونة حرجهم الأخلاقي من إعلان الانفصال في هذا التوقيت.

وظل عبدالإله بن كيران صاحب مبادرات متقدمة وجريئة في العمل الإسلامي.. فهو أول من دعا إلى تكوين قطاعات نسائية في الحركة، وألا تختلف شروط انضمام النساء عن شروط انضمام الرجال.. وعقد أول لقاءات موسّعة للأخوات في بيته، وذلك في العام ١٩٨٦م.

وقاد أيضاً أول مبادرات الاعتراف بشرعية النظام الملكي في المغرب ونبذ العمل الثوري.. وأطلق مقولة شهيرة انتشرت بشكل كبير عند كوادر الحركة، ـ ذكرتني بمقولة معاوية بن أبي سفيان عندما قُتل عمار بن ياسر في صفين، فقال معاوية جملته العبقريّة: قتله الذي أتى به ـ واستطاعت هذه المقولة أن تحل كثيراً من الإشكالات في المنظومة الفكرية لتلك الكوادر التي كانت تميل إلى تكفير نظام الحكم في المغرب. حيث قال بن كيران: (إن الدول مثل الأفراد، لا نحكم عليها إلا بما تدعيه. وإذا كانت

الدولة المغربية قد أعلنت أنها مسلمة، فهي كذلك حتى لو ارتكبت ممارسات تخل بإسلامها.. ومثلما لا نكفر الفرد الذي يعلن الإسلام حتى لو ارتكب ذنوباً ومعاصي، فإنه ينبغي ألا نكفر الدولة بمجرد أن ارتكبت ما لا يتوافق مع الإسلام طالما أعلنت أنها مُسلمة).. طبعاً كانت هذه مقولةً سياسيةً بامتياز، وليست خاضعة لتمحيص شرعي، ولكنها فعلت فِعلها داخل الحركة، واستطاعت أن تُخفف كثيراً من غلواء التكفير والرفض لشرعية النظام عند قواعد الحركة في الثمانينيات.

كما قاد بن كيران مشروع التأسيس لحزب سياسي علني في بداية التسعينيات تحت اسم (التجديد الوطني) ولكنه لم يُمنح رخصة قانونية.. ثم قاد المفاوضات الصعبة مع عبدالكريم الخطيب من أجل انضمام كوادر (حركة التوحيد والإصلاح) إلى (الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية)، وما أنتجته هذه الشراكة فيما بعد من تأسيس (حزب العدالة والتنمية).

ويبدو أن بن كيران غير عابئ بحضوره وشعبيته عند قواعده التنظيمية، ولم يحاول كسب تعاطف كوادره الحزبية، أو عمل لوبيات داخلية تُحسب عليه.. لذا هو اليوم يَلقى كثيراً من النقد عند قطاعات شبابية داخل الحزب ربما لا يعرف بعضهم التاريخ المثير لهذا القائد. وهو يسمع هذا النقد، ويتقبله باسترخاء شديد، بل وكثيراً ما يُردد ـ وبسخرية ـ عن نفسه: (أنا قائد لا توقره حركته).. وربما كان هو أول من استغرب فوزه في انتخابات الأمانة العامة لحزب العدالة والتنمية في العام ٢٠٠٨م.

* * * *

في الواحدة والنصف ظهراً دخلت على عبدالإله بن كيران في مكتبه.. رحب بي بلطف شديد ونكتة حاضرة.. وجلسنا بعد أن انضم إلينا الأستاذ جامع المعتصم عضو مجلس المستشارين في البرلمان المغربي عن حزب العدالة والتنمية.

بدا واضحاً أن بن كيران لا يعبأ كثيراً بالشكليات.. ويمكن أن تتعامل معه كما

لو كنت تعرفه منذ سنين، رغم أنك تلتقيه لأول مرة.. سألني ابتداءً عن بعض الشأن السعودي.. ثم تحدثت معه عن بعض شؤون الحزب.. وسألته عن تصوراتهم المستقبلية للهامش السياسي الممكن للحزب.. وهل يمكن أن يكونوا يوماً ما في السُلطة.. وعن بعض تفاصيل تاريخهم السياسي.. ثم تطرقنا إلى ما حصل في مؤتمر الحزب السادس، الذي انتُخب فيه بن كيران أميناً عاماً.. عندها قلت له: هل تعرف حجم الأثر الإيجابي الذي تكوّن عند كثير من الدوائر الإسلامية والعلمانية تجاه طريقة الحزب العدالة والتنمية في انتخاب قيادته، وخصوصاً أن كل التقارير الصحفيّة كانت تتحدث منذ أيام عن فوز سهل ومحسوم لسعد الدين العثماني.. ثم تأتي المفاجأة بفوزك أنت، لتشير إلى حجم الشفافية التي يمارسها الحزب في انتخاباته الداخلية.

هنا فاجأني بن كيران وهو يقول: هل تعرف أن الذي قلب كل التوقعات والاستطلاعات في هذا المؤتمر كانت فتاة شابة تنتمي للحزب!.. حيث كانت هذه الفتاة النابهة من الفريق الذي يعمل بقرب سعدالدين العثماني.. وقبل بدء عملية الانتخاب، أخذت هذه الفتاة دورها في الحديث، وتحدثت عن مجموعة أخطاء وإشكالات اعتبرتها مفصلية في طريقة سعد الدين العثماني بإدارة الحزب. وكان نقدها دقيقاً وتفصيلياً.. فاستطاعت أن تغيّر المزاج الانتخابي للناخبين، ونتج عنه فوزي في الانتخابات.

ثم أردف وهو يضحك: هم اعترضوا على بعض أساليب د.العثماني في قيادة الحزب، فلم يجدوا بكل أسف غيري لتولي الأمانة العامة.

أراد بن كيران بمقولته هذه أن يشير بتواضع إلى أنه لم يكن خياراً أصلياً عند كوادر الحزب.. ولكن كان خياراً اضطرارياً، حيث لم يجدوا أفضل منه في تلك اللحظة.

ثم أكمل بن كيران حديثه بإشادة كبيرة بالدكتور سعدالدين العثماني، وأنه من أكثر قيادات الحزب حرصاً وكفاءةً.. وأضاف وهو يشير إلى مكتبه: في أيام العثماني كنت تجده على هذا المكتب منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل.. أما أنا فما أن أجلس على هذا المكتب لبضع ساعات حتى أشعر بالإرهاق وأعود إلى البيت.

وقال أيضاً: كنا ندعو منذ شبابنا ألا يتولى قيادة العمل السياسي من تجاوز الستين من العمر، وعلينا أن نكون أول من يطبق هذا الأمر، خاصة أننا اقتربنا من هذه السن.

كان من أبرز ما لمسته أثناء لقائي بعدد من قيادات حزب العدالة والتنمية، هو عدم حَرَجِهم من إظهار اختلافاتهم الفكرية والسياسية فيما بينهم.. لذا كنت أسمع آراء متباينة ووجهات نظر مختلفة تماماً من قيادات داخل الحزب.. وهذا يدل دون شك على تجذر العمل الديمقراطي داخل الحزب، بحيث يرضى جميع المختلفين بنتائج صندوق الاقتراع.

وهذا أمرٌ لا تكاد تلمسه عند الحركات الإسلامية الأخرى، التي حين تتحدث إلى بعض قياداتها، تجدهم وكأنهم كائنات مُستنسخة، يتفقون - في العَلَن - في كل الرؤى والأفكار والتفاصيل!. في ذات الوقت الذي تعرف فيه من مصادر داخلية أن حجم الخلاف عند قيادات هذه الحركة قد بلغ آماداً بعيدة!

بعد ساعة ونصف من الحوار الشيق والثري مع عبدالإله بن كيران استأذنته بالانصراف.. فقال لي: أين ستذهب الآن؟. قلت له مبتسماً: أسيح في أرض الله.. رد علي: هل تناولت طعام الغداء؟ أجبته: لا تُشغل نفسك بي يا مولانا.. عندها أمسك بيدي وقال: يجب أن تتناول الغداء معنا.. أجبته باعتذار: لا أريد أن أشغلكم أكثر، يكفي الوقت الذي منحتموني إياه.. لكنه أصر وقال: لن تُشغلنا، أنا عندي اجتماع سيبدأ بعد قليل، ولكن يجب أن تذهب مع الأخ جامع المعتصم إلى البرلمان وتتناولان الغداء هناك.

بصراحة.. عندما سمعت مفردة (برلمان) لم أستطع مقاومة إغراء العرض، خاصة أنني لم أكن مرتبطاً بموعد مباشر.. قلت له ضاحكاً: إذا كان هذا الغداء سيدخلني البرلمان فيمكن لي أن أتناول طعام العشاء هناك أيضاً.. شكرت الأستاذ بن كيران على لطفه واستقباله، وتوجهت بصحبة الأستاذ جامع المعتصم إلى مبنى البرلمان.

* * * *

كنت أتوقع لوهلة أن تكون هناك إجراءات أمنية مشددة عند الدخول.. ولكن ربما لأنني قدمتُ بصحبة نائب برلماني، لم يتجاوز الأمر أن وضعت بطاقتي الصحفية عند موظف الأمن.. ودخلت.

يضم البرلمان المغربي غرفتين نيابيتين:

الأولى: مجلس النواب، ويضم ٣٢٥ مقعداً، منها ٢٩٥ مقعداً يتم انتخابها عن طريق نظام اللوائح الانتخابية، و ٣٠ مقعداً مخصصة للنساء (كوتا نسائية)، وذلك عبر اختيار أكثر (ثلاثين امرأة) حصلن على أصوات في كل المغرب.. ومدة المجلس خمسة أعوام.

ورغم أن في المغرب اليوم أكثر من خمسة وثلاثين حزباً سياسياً.. إلا أن طبيعة النظام الانتخابي المتضمن لما يُسمى بـ (نظام العتبة)، الذي ينص على ضرورة أن يتخطى أي حزب عتبة الـ ٦٪ من مجمل أصوات الناخبين في المغرب، يُسهم فقط في وصول الأحزاب التي تحظى بحد أدنى من الشعبية.. وتوضع هذه الأنظمة عادة من أجل تفادي تفتيت مقاعد البرلمان بتفرّقها على كتل صغيرة وغير مؤثرة.

لذلك يتشكل مجلس النواب الحالي والمُنتخب في سبتمبر ٢٠٠٧م من عشرة أحزاب فقط، أهمها: (حزب الاستقلال ٥٢ مقعداً)، (حزب العدالة والتنمية ٤٧.مقعداً)، (حزب الحركة الشعبية ٣٨ مقعداً / وهو الحزب الذي انفصل عنه د.عبدالكريم الخطيب في العام ١٩٦٧م وكون فيما بعد "الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية")، (التجمع الوطني للأحرار ٣٨ مقعداً)، (الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ٣٦ مقعداً)، وأحزاب أخرى بمقاعد محدودة.

الثانية: مجلس المستشارين، ويضم ٢٧٠ مقعداً.. وهو عبارة عن مجلس يتم انتخابه من قِبل رؤساء البلديات وهيئات المناطق والغرف المهنية وفق نظام تفصيلي محدد.. (هو يشبه تماماً نظام الغرفة الثانية في البرلمان الفرنسي التي تُسمى مجلس الشيوخ).. ويستمر أعضاء مجلس المستشارين تسعة أعوام، بحيث يتم انتخاب ثلث أعضاء المجلس كل ثلاثة أعوام.

أول ما دخلت إلى مبنى البرلمان المغربي رأيت أمامي صالات ضخمة وممتدة، ويجلس بها العديد من النواب.. مررنا بعدد من الصالات وببعض الأقسام الإدارية في البرلمان، ثم توجهنا إلى المطعم بعد أن انضم إلينا مسؤول المكتب الإعلامي لكتلة العدالة والتنمية.. وفي الشاشة الكبيرة التي وضِعت على أحد حوائط المطعم تابعنا جلسة كانت منعقدة لمجلس المستشارين.

حدثني مسؤول المكتب الإعلامي عن كيفية تغطيتهم لعمل الكتلة، وسألته عن حيادية تعامل وسائل الإعلام مع نشاط كتلتهم، وهل ثمة مطبوعات خاصة تمثلهم، أم أنهم يعتمدون على توزيع بياناتهم على الصحف والقنوات.

كان المطعم مكتظاً بالكثير من النواب وموظفي البرلمان.. وكانت الخدمة دون شك رفيعة جداً.. وبعد فراغنا من الغداء، توجهنا إلى قاعة البرلمان، ودخلت بصحبة مسؤول المكتب الإعلامي إلى مقاعد الحضور التي تقع خلف مقاعد النواب مباشرة.

بدت لي قاعة البرلمان بمعمارها المغربي الصِرف فخمة جداً، حيث الفسيفساء الممتدة على الجدران، والزخرفات الجبسية، والألواح الخشبية الداكنة، والمشغولات الحديدية، وكل شيء يوحي بهوية الأرض وتاريخها وأصالتها.. وكان الترتيب المعمول به لمقاعد النواب يُشبه ذاك الذي نراه دوماً في مجلس العموم البريطاني.

الجلسة التي حضرناها كانت استجواباً لوزير الاقتصاد المغربي، وبدت بعض مداخلات النواب عنيفة وحادة.. أحدهم قال للوزير: نحن لا نسمع منك إلا الحديث المتكرر عن أن الاقتصاد المغربي لم يتأثر بالأزمة المالية، وفي نفس الوقت نرى الأسواق العالمية تنهار، والشركات الكبرى تُغلق أبوابها، ونرى انعكاس كل ذلك على اقتصادنا المحلي، ومع ذلك كله مازلت تردد أن اقتصادنا متين ولم يتأثر بالأزمة!!

كنت أتابع من مقاعد الحضور كل ما يجري.. حركة النواب.. سخونة المداخلات.. ردود الفعل.. وتدخلات رئاسة الجلسة لفك الاشتباك.. أرقب كل ذلك.. وأتأمل.. وأردد: (ربنا يطعمنا).

بعد نصف ساعة من الجلوس في قاعة البرلمان، توجهنا إلى المقر الذي توجد به مكاتب كتلة العدالة والتنمية داخل البرلمان، وأراني الأستاذ جامع المعتصم معظم مكاتب الكتلة، وصالات الاجتماع، ومكاتب الخدمات، والعديد من المنشورات الخاصة بالكتلة.

وحين اقتربت الساعة من الرابعة والنصف، اضطررت للانصراف ـ رغم استمتاعي ـ لأنني كنت على موعد مع د. أحمد الريسوني والمهندس محمد الحمداوي (رئيس حركة التوحيد والإصلاح) في مقر الحركة.

وفي مكتب رئيس الحركة رحب بي الأستاذ الحمداوي ود. الريسوني، وتحدثنا في مواضيع شتى.. سألت الأستاذ محمد الحمداوي ابتداءً عن طبيعة علاقة الحركة بحزب العدالة والتنمية، وهل ثمة خطوط تداخل بين المؤسستين. ثم تطرق حديثنا إلى طبيعة الهياكل التنظيمية للحركة، وكيف يُتخذ القرار داخلها، وعن موقفهم تجاه القضايا الإشكالية في الوسط الفكري والشرعي. وسوى ذلك من موضوعات.. وكان الحمداوي يسألني بدوره عن تنوعات المشهد الإسلامي السعودي، وتحولاته الأخيرة.

أما الدكتور الريسوني فكان هو المرجع في بعض التفاصيل التاريخية التي تطرقنا إليها، لكونه من القيادات التاريخية للحركة الإسلامية، والرئيس الأول لحركة التوحيد والإصلاح بعد تأسيسها في العام ١٩٩٦م.. كما استفسرت أيضاً من د. الريسوني عن الموسوعة الضخمة للقواعد الفقهية التي يقومون بإعدادها في مجمع الفقه الإسلامي بمدينة جدة السعودية، حيث يقيم الريسوني هناك منذ عامين.

وبعد ساعة ونصف من الحديث الشيّق، استأذنت بالانصراف بعد أن أكرمني الشيخان بعدد من كتبهم وببعض الإصدارات التوثيقيّة للحركة.

* * * *

كانت الساعة تُقارب السادسة والربع .. وكنت على موعد في الثامنة مساءً مع الأستاذ أحمد ساسي، وهو الرجل الثاني في (الحركة من أجل الأمة) التي يقودها الأستاذ محمد المرواني المُعتقل منذ عام ونصف فيما يُسمى بخلية (بلعيرج) .. وهذا يعني أن أمامي قرابة الساعة والنصف لأرى ما يمكن رؤيته في مدينة الرباط.

توجهت أولاً إلى المكان الأكثر شهرة في المدينة (قلعة أوداي). وهي القلعة التاريخية الشهيرة التي كانت حصناً للمرابطين، وتقع على الخليج المائي الصغير الذي يفصل بين مدينتي الرباط وسلا.

دخلت عبر بوابة كبيرة تقع على السور التاريخي لهذه القلعة، التي باتت اليوم في وسط المدينة .. وتجولت في متاهاتها الكثيرة ومسالكها، وصعدت إلى بعض أبنيتها المرتفعة .. واستمتعت بإطلالة رائعة من إحدى زوايا القلعة على مدينة سلا التاريخية الأكثر قدماً من الرباط. ولاحت لي من بعيد أحياؤها العتيقة ومآذنها الكثيرة .. ورغم متعة ما شاهدته في هذه القلعة، إلا أنني لم أستطع البقاء أكثر، رغبة في أن يُسعفني الوقت للتجول قليلاً بالمدينة القديمة.

توجهت إلى المدينة القديمة في الرباط، ودخلتها مع بدء دخول الليل وغياب الشمس خلف الأفق. فرأيت الفوانيس وهي تُشعل، والمصابيح الكبيرة وهي تُضاء، وصوت الأذان الذي بدأ يصدح في كل الأرجاء، والطرقات المكتظة بالمارة والمتسوقين، والمساجد القديمة وهي تستقبل المُصلين .. صليت المغرب والعشاء جمعاً في أحد هذه المساجد، ثم أكملتُ جولتي في أزقة المدينة القديمة التي بدأت تتوهج في الليل. واشتريت من أحد الدكاكين بعض القطع التذكارية. ثم توجهت إلى المقهى الذي اتفقت مع الأستاذ أحمد ساسي على لقائه به، وكان يقع - لحسن حظي - بالقرب من محطة القطار.

في الثامنة تماماً كنت مع أحمد ساسي في مقهى هادئ يقع على شارع محمد الخامس .. ورغم أنني كنت قد تحدثت قليلاً في ندوة منتدى الكرامة مع الأستاذ أحمد، إلا أنني كنت أود أن أعرف أكثر عن هذه الحركة .. سألته في البداية سؤالاً

أظن أنه سيساعدني في فهم طبيعة المسار العام لهذه الحركة، قلت له: هل يمكن أن توجز لي باختصار أين تختلفون وأين تلتقون مع (حركة التوحيد والإصلاح) و(حزب العدالة والتنمية)؟

استفاض الأستاذ أحمد ـ وهو متحدث بارع ـ في شرح خطوط التلاقي والتباين.. وبدا لي واضحاً عدم وجود خلاف جذري ومفصلي مع حركة التوحيد وحزب العدالة والتنمية، سوى في المُطالبة ببعض التصعيد، واشتراط بعض الإصلاحات الدستورية التي يرى حزب العدالة والتنمية أن سقفها مرتفعٌ، وأن من المبكر وضعها في لائحة المطالب الحزبية.

قبل لقائي بالأستاذ أحمد ساسي كنت قد قرأت عدداً من أدبيات الحركة، وبدا لي أن هناك نزوعاً يسارياً واضحاً في مشروعهم الاقتصادي والسياسي وفي روحهم الحركية.. وعرفت أن ثمة تعاطفاً مع مشروع الثورة الإيرانية، التي لا تحظى في المُقابل بأي رصيد عند حركة التوحيد وحزب العدالة والتنمية.. أيضاً ظهر لي أنهم ينزعون لصياغة مشروع سياسي ذي طابع نخبوي، ربما هو يثير إعجاب بعض النخبة المُثقفة، ولكن هذه النخبوية تقف ـ في الغالب ـ عائقاً أمام رواج أفكارهم الحزبية وانتشارها.

وكان مما استغربته هو حرصهم على التمسك بالاتجاه الرسمي والتاريخي للمغرب في قضايا الفقه والاعتقاد، وذلك وفق ثلاثية (مالكية المذهب، وأشعرية الاعتقاد، وصوفية الجنيد)، وهو ما أظنه دخولاً فيما لا يجب على الحزب السياسي أن يدخل فيه. حتى لا يُضيّق واسعاً، ويضع معايير عقائدية وفقهية للمنتمين إليه، بدل أن تكون هذه المعايير سياسية وفكرية!

في التاسعة تماماً كنت على متن القطار المتجه إلى الدار البيضاء.

أثناء تجوالي في المدينة القديمة بالرباط، راودتني فكرة الاتصال بالدكتور سعدالدين العثماني لأرى إن كان قد عاد من سفره، وعنده وقت للقاء؟.. وإن لم يكن، فيكفي أن أسلّم عليه.. وكنت قد علمت من الشباب في حزب العدالة والتنمية أن العثماني يحضر مؤتمراً يمتد لعدة أيام في مدينة أغادير الواقعة في الجنوب

المغربي، وأنه لن يعود قبل بضعة أيام.. لكن قلت لأجرب حظي وأتصل.

اتصلت على هاتفه المحمول فرد علي مباشرة.. سلمت عليه وعرفته بنفسي، وقلت له إننا التقينا في الرياض قبل أربعة أعوام، فرحب بي بكل لطف، وقال: نعم أذكرك جيداً ـ أنا أجزم أنه لم يكن يذكرني، لأننا التقينا في ندوة كان فيها أكثر من عشرين شخصاً، ولكنه قال ذلك لُطفاً ومجاملةً.. وبادر هو بسؤالي: أين أنت الآن؟ قلت له: في الرباط، وسأكون بإذن الله في الساعة العاشرة بالدار البيضاء.. قال لي: هذا جيد.. أنا الآن في طريقي إلى الدار البيضاء، وعندي محاضرة تمتد حتى العاشرة والنصف، ولن أتناول العشاء معهم، بل سأتصل بك عندما أفرغ من المحاضرة لنذهب للعشاء سوياً.

الدكتور سعدالدين العثماني من مواليد عام ١٩٥٦م، وهو سليل أسرة أمازيغية كبيرة من منطقة سوس الجنوبية القريبة من الصحراء المغربية.. وأسرة العثماني معروفة بتاريخها العلمي الطويل، حتى إن أحد المؤرخين المغاربة (هو محمد المختار السوسي) خصص قرابة المائة وستين صفحة في موسوعته (المعسول) للحديث عن التاريخ العلمي لهذه الأسرة. وقال عنهم: لا أعرف الآن في المغرب أسرة تسلسل فيها العلم أباً عن جد زهاء ألف سنة إلا هاتين الأسرتين (يقصد أسرة العثماني، وأسرة علمية فاسية شهيرة).. ويبدو أن هذا التاريخ العلمي للأسرة هو ما دفع سعدالدين العثماني لمواصلة دراساته الشرعية، رغم تخصصه الأكاديمي في الطب النفسي. فقط حصل على الشهادة الجامعية في الشريعة، وأكمل الماجستير في أصول الفقه. وأصدر عدة مؤلفات في هذا الإطار.

كان سعدالدين العثماني من عرابي الانفتاح داخل الحركة الإسلامية مذ كان شاباً يافعاً في حركة الشبيبة الإسلامية. وبعد خروجه من الشبيبة ضِمن من سُموا بـ (مجموعة الستة)، الذين أسسوا بعد ذلك (الجماعة الإسلامية)، كان من أهم المنادين بضرورة نبذ العنف، والبُعد عن التصعيد مع السلطة، وترك العمل السري، وخوض معركة الحصول على الشرعية القانونية.

ويُعد العثماني اليوم من أبرز السياسيين المُحترفين داخل الحزب، وقد أضافت له معرفته الشرعية ثقلاً داخل الحركة الإسلامية.. فعندما قررت حركة التوحيد والإصلاح الدخول في شراكة مع (الحركة الشعبية الدستورية) التي يقودها د.عبدالكريم الخطيب في العام ١٩٩٦م، والمشاركة في الانتخابات النيابية التي جرت في العام ١٩٩٧م. تصدى العثماني للتأصيل الشرعي لهذه المشاركة، بهدف إقناع كثير من كوادر الحزب المُشككة في شرعية هذه المشاركة. فأصدر العثماني كتابه (فقه المشاركة السياسية عند شيخ الإسلام ابن تيمية)، وكتب عدة دراسات في السياسة الشرعية قام فيها بتأصيل مشروعية المشاركة، وهو ما انعكس إيجاباً على الرأي العام داخل الحركة الإسلامية باتجاه القبول بالمشاركة في الانتخابات.

وبعد قرار د. عبدالكريم الخطيب الانسحاب من الحياة السياسية ومن أمانة حزب العدالة والتنمية، وذلك في مؤتمر الحزب الذي عُقد عام ٢٠٠٤م، اتجهت جميع الأنظار نحو سعدالدين العثماني، فانتُخب باكتساح كأمين عام للحزب، حيث حصل على ١٢٦٨ صوتاً من أصل ١٥٩٥. فيما لم يحصل رفيق دربه الأستاذ عبدالإله بن كيران سوى على ٢٥٥ صوتاً.

والعثماني من أبرز دعاة التواصل مع الأحزاب السياسية ومع السُلطة، لذا يُعد من أبرز (الحمائم) داخل الحزب. وهو عرّاب التوافقات، والرجل الأكثر قدرة على نسج التحالفات وتنسيق الجهود مع التيارات الأخرى في حال استلزمت مصلحة الحزب لذلك.

في الساعة العاشرة والنصف تلقيت اتصالاً من الدكتور سعدالدين العثماني يسألني فيه عن مكان تواجدي، فقلت له إنني وصلت إلى الفندق الذي أقيم فيه بالدار البيضاء.. لم يستغرق الأمر سوى عشر دقائق حتى كان د.العثماني أمام باب الفندق.. ركبت معه وكان بصحبتي الدكتور صالح حيربي الذي قرر مشاركتنا في ليلتي الأخيرة بالدار البيضاء.

بدا العثماني في غاية البساطة والتواضع وهو يرحب بي ويسألني عن شؤوني

الشخصية وعن انطباعاتي في زيارتي الأولى للمغرب.. وكان بعفوية تعامله وحرارة سؤاله أشبه بصديق حميم لم ألتقه منذ زمن.

توجهنا إلى مطعم شعبي مُتخصص بتقديم المأكولات البحرية.. في الطريق بدا واضحاً أن د.العثماني شخصية جماهيرية معروفة، فهذا يسلم عليه عند إشارة المرور، وصاحب المطعم يرحب به وكأنه يعرفه منذ زمن - أخبرني بعد ذلك أنه لم يكن يعرفه، حتى عامل النظافة أتى مسرعاً حين رآه وسلم عليه بحرارة وطلب منه أن يُعطيه واحدة من القبعات التي كان يوزعها حزب العدالة والتنمية في فترة الانتخابات!.

في هذه الجلسة الهادئة، ووسط أجواء عذبة يمتزج فيها السكون بنسائم الريح الباردة التي تجود بها ليالي نيسان. تحدثت مع د.العثماني في مواضيع شتى.. سألته ابتداءً عن ظاهرة لا نكاد نراها في العالم العربي سوى في المغرب، تتمثل بوجود أحزاب سياسية غير محسوبة على الحركة الإسلامية (بعضها ليبرالي والبعض الآخر يساري) ومع ذلك لها حضور جيد في الشارع، وتحظى بأعداد كبيرة من مقاعد البرلمان. كحزب الاستقلال وحزب الاتحاد الاشتراكي وحزب الحركة الشعبية وسواهم.. وهذا الأمر لا نكاد نجده في بقية الدول العربية التي تسودها في الغالب حركات إسلامية (محظورة أو مقموعة) تحظى بشعبية كبيرة في الشارع، وبعض الأحزاب السياسية الهامشية الأخرى (ليبرالية ويسارية) التي ليس لها أي حضور شعبي حقيقي.

أجابني د.العثماني بأن المغرب لم يُعانِ ما عاناه المشرق العربي من وجود خصومات حادة بين الإسلاميين ومخالفيهم، ووجود مفاصلة في موقف الأحزاب اليسارية والليبرالية من الإسلام.. فالمغرب في دستوره وهيكليّته دولة إسلامية يرأسها أمير المؤمنين. والإقرار بهذا الأمر من أهم قواعد المشاركة السياسية.. لذا فأنت تجد في دساتير الأحزاب غير الإسلامية اعترافاً واضحاً بإسلامية الدولة وانتمائها لعمقها الإسلامي.. أيضاً هناك العديد من الأحزاب التي تتكئ على إرث إسلامي راسخ - وإن كان خطابها السياسي قد تغيّر كثيراً - كحزب الاستقلال الذي أسسه الشيخ علال الفاسي أحد أبرز الرموز الإسلامية في المغرب.. وحتى الأحزاب اليسارية تجد أن غالبها متصالح مع الهوية والتراث الإسلاميين، بل ربما تجد فيها جيوباً متدينة

ومتعاطفة مع الحالة الإسلامية.. وكذلك على الصعيد الثقافي لا يبدو الموقف من الإسلام عند النُخب العلمانية والمؤسسات الثقافية في المغرب بذات العنف الذي نلمسه عند علمانيي المشرق العربي.

سألته أيضاً عن الفروق بين حزب العدالة والتنمية وبعض الحركات الإسلامية الأخرى، كـ (حزب البديل الحضاري) و (الحركة من أجل الأمة).. فقال لي أن الاختلافات في حقيقتها محدودة، وأن مقدار تنوع الآراء وتباينها داخل حزب العدالة والتنمية يفوق هامش الاختلاف مع هاتين الحركتين.. وقد جرت حوارات مع كلتا الحركتين بقصد توحيد الجهود، نتمنى أن تُنتج توحّداً في المستقبل.

بقينا نتحدث في هذه الليلة الهادئة حتى تجاوزت الساعة الثانية عشرة والنصف.. وفي الطريق شكرت د. العثماني على لطفه، وعبّرت له عن امتناني لهذا اللقاء الجميل الذي جاء على عجل.. وبصراحة أكبرت في العثماني حرصه على لقاء ضيف لم يسمع باسمه يوماً.. خاصة عندما عرفت أنه لم يرجع إلى بيته منذ الفجر بسبب عودته نهار اليوم إلى الرباط من المؤتمر الذي عُقد في أغادير، ثم اضطراره للسفر إلى الدار البيضاء لإلقاء محاضرته المسائية، وبعد ذلك إصراره - رغم الإرهاق الذي بدا واضحاً في ملامح وجهه - على الالتقاء بي في هذه الساعة المتأخرة من الليل.. وقد شعرت بتأنيب الضمير حين عرفت أنه سيعود مباشرة عقِب انتهاء لقائنا بعد منتصف الليل إلى مدينة الرباط بسيارته عبر طريق يستغرق أكثر من ساعة.

* * * *

في الفندق جلست مع الدكتور صالح حيربي لإنهاء ترتيبات سفري إلى تونس. واستلمت منه - وهو يملك شركة سفريات - تذاكر السفر، وأعلمني بتوقيت إقلاع الرحلة ظهيرة الغد، ومن ثم توقيت العودة من تونس إلى الدار البيضاء بعد أربعة أيام. وقد قام د. صالح بكل هذه الترتيبات بكل لطف وترحيب، رغم أن طلبي لهذه الحجوزات تم قبل يومٍ واحدٍ فقط.

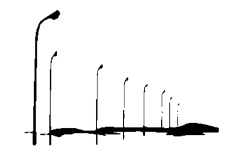
والدكتور صالح حيربي هو من أبناء الحركة الإسلامية، وعضو في منتدى الكرامة لحقوق الإنسان، وصديق لعدد من قيادات الحركة الإسلامية. وقد عرفت شيئاً من عصاميته التي تستحق الإعجاب. إذ ولد في أسرة فقيرة كانت تقيم في بيوت الصفيح. وكان يعمل منذ صِغره كي يعول نفسه وأسرته، ومع ذلك استطاع إكمال دراسته والحصول على الدكتوراه، وتأسيس شركة سفريات كبيرة.. وهو الآن يُصر على أن يقدّم خدماته بالمجان لكل النشاطات ذات الطابع الدعوي أو الحقوقي.

* * * *

في ظهيرة اليوم التالي كنت على متن طائرة الخطوط المغربية المتوجهة إلى تونس.. بعد أن أمضيت في المغرب ستة أيام، كانت مليئة بالتنوّع، وثراء الأفكار، وعبق الأزمنة القديمة.

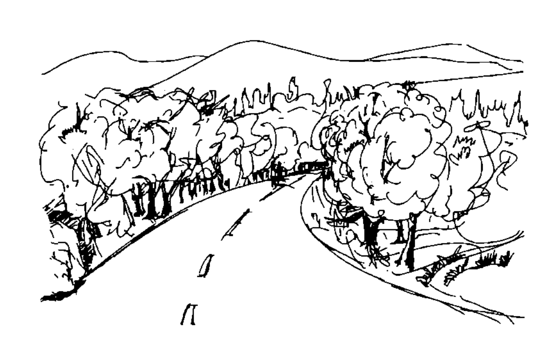
غادرتُ المغرب بعالمه المُختلف، ورجاله المختلفين، وأسئلته المختلفة. وحركته الإسلامية المتطورة، التي باتت تندفع وراء الاندماجات، فيما الحركات الإسلامية الأخرى تنقسم وتتشظى، وتتقدم باتجاه مزيد من الانفتاح والمرونة والذكاء السياسي، فيما تكتفي الحركات الأخرى بتعليق تراجعها على مشجب المؤامرة والابتلاء وتمحيص الصفوف!

كنت أحسب المغرب يعيش في فضائه الخاص البعيد.. وإذ به أقرب مما كنتُ أظن.. يعيش كل قضايانا وأسئلتنا.. ويتنفس ذات الهواء المُشبع بآمال كبيرة.. وهموم أكبر.



أوراق
تونسيّة

جولةٌ في غاباتِ قَمَرت..
وحديثٌ عن معرض الكتاب



1

على متن الطائرة المكتظة بالركاب، والمتجهة من الدار البيضاء إلى تونس، حاولت أن أختبر قدرتي على التمييز بين اللهجات المغاربية التي يتحدث بها المسافرون، كي أعرف المغربي من التونسي.. ولكنني ـ وبعد محاولات عديدة ـ فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً!

بعد ساعتين ونصف وصلنا إلى مطار قرطاج بالعاصمة تونس.. ولأنني لم أكن أحمل هذه المرة سوى كتب قليلة لا تتجاوز تلك التي أُهديت لي في المغرب، إضافة إلى خمسة كتب قمت بشرائها من المكتبات، لم أكن أتوقع أن تُثار معي قصة الكتب مرة أخرى.. خاصة أنه يُقام في ذات الوقت بالعاصمة التونسية معرض دولي للكتاب.. وهو ما سيساعد ربما بعدم التشدد في إدخال الكتب.

عندما اقتربت من نقطة التفتيش أومأ لي موظف يبعد عني بضعة أمتار، ويقف عند إحدى نقاط العبور، بإشارة من عينيه تعني: ادخل مباشرة دون تفتيش.. وحين حاولت الدخول وإذ بموظفة تُشير لي بحزم أن أوقف الأمتعة كي تخضع للتفتيش! (نصيحة: تجنب الموظفات في كل الدوائر الحكومية والشركات، فهن يلتزمن ـ وبصرامة ـ بحرفية القانون، ولسن على استعداد لتقديم حد أدنى من التعاون، ولو كان من قبيل تقديمِ كأس من الماء لمن يوشك على الهلاك، إذا لم يكن ذلك منصوصاً

عليه في النظام!).. وما إن رأت هذه الموظفة الكتاب الأول حتى قالت: أخرج جميع الكتب، لنقوم بتحويلها إلى إدارة الرقابة.

وفي إدارة الرقابة بدأ نفس الفيلم الذي حصل لي في المغرب.. حيث رفضوا رفضاً قاطعاً إدخال أي كتاب دون وجود موافقة من الجهات الرسمية.. حاولت أن أقنعهم بأن كل هذه الكتب تُباع الآن بمعرض الكتاب في الداخل، وأنه لا قيمة اليوم للرقابة، لأن كل شيء موجود في الإنترنت.. عند ذلك قال لي الموظف بثقة وهو يتصفح بعض الأوراق، ودون أن ينظر إلي: لن تجد كل شيء موجوداً في الإنترنت. (في البداية لم أعر كلامه اهتماماً. ولكن عندما دخلت، فوجئتُ بأن عدداً كبيراً من المواقع محجوبة، وبالذات المواقع الإسلامية.. حتى موقع يوتيوب كان محجوباً!!. فعرفت لم بدت كل هذه الثقة في حديث الموظف).

في النهاية لم تجدِ المفاوضات كما أجدت في المغرب. فلم أدخل إلى تونس إلا بعد أن أخذوا كل ما بحقائبي من كتب.. وقالوا إنها ستبقى محفوظة في المطار حتى أقوم باستلامها أثناء مغادرتي للبلد.

حكى لي أستاذ جامعي صديق عمِل زمناً بإحدى الجامعات التونسية في تسعينيات القرن العشرين ـ وهي الفترة التي كان فيها التوتر على أشده بين الحكومة التونسية والإسلاميين ـ أنه قدِم إلى مطار تونس وكان في حقيبته كتاب واحد فقط، هو (تجديد التفكير الديني) لمحمد إقبال.. وعند نقطة التفتيش أخذ الموظف هذا الكتاب، وقام بالاتصال بموظف آخر عبر الهاتف وقال له: هناك راكب معه كتاب من كتب سيد قطب.. يقول صاحبي أنني استغربت من قوله هذا، وعرفت أنه لم يعرف الكتاب ولا المؤلف، فقلت له ببرود شديد مستغلاً جهله: يا أستاذ، مؤلف هذا الكتاب هو محمد إقبال وليس سيد قطب، هذا المؤلف زنديق وملحد وليس إسلامياً.. يقول صاحبي أن الدهشة بدت على وجه الموظف، فقال لي متسائلاً: ولكن عنوانه (تجديد التفكير الديني)!.. قلت له: هو يقصد تدمير التفكير الديني.. عند ذلك لم يزد الموظف على أن ناولني الكتاب وقال لي: تفضل بالدخول!

في الصالة الداخلية لمطار قرطاج وجدت الصديق عبدالرحمن في انتظاري.. وعبدالرحمن مثقف تونسي له حضور جيد في الوسط الثقافي، وله علاقات وثيقة بكثير من الشخصيات الأكاديمية في تونس. وقد عاش زمناً في فرنسا، وتولى ـ لعدة سنين ـ رئاسة تحرير مجلة فكريّة عربية تصدر من باريس.

رحب بي بلطف، وتوجهنا سوياً إلى الفندق الذي أنوي الإقامة به.

ولأنني لم أكن بعيد العهد عن تونس، فقد زرتها برفقة زوجتي قبل سنتين، حيث تجولنا في رحلتنا السياحية تلك بخمس مدن، وتعرفت خلالها على أهم المناطق التي تستحق الزيارة في تونس.. لذا حين قررتُ زيارة تونس مرة أخرى، كان قراري الذي لا حيدة عنه هو السكن في منطقة (قَمَرت).

و(قَمَرت) ضاحية تقع في شمال العاصمة تونس، وتبعد عنها قرابة العشرين كيلومتراً، وهي عبارة عن غابة كثيفة من أشجار الصنوبر العالية وأشجار الزيتون، تُطل على البحر الأبيض المتوسط.. وبها قسمان، (قرية قَمَرت) القديمة، وفي شمالها تقع المنطقة السياحية الجديدة التي تُسمى (قَمَرت العليا)، وتضم عدداً من الفنادق والمنتجعات الغارقة في بحر من الهدوء والاسترخاء.

وبعد العام ١٩٨٢م، وعلى أثر الخروج التراجيدي لياسر عرفات والقيادة الفلسطينية من بيروت، وتوجههم عبر البحر إلى تونس، حيث امتدت إقامتهم بها لعدة سنين، حتى عادوا إلى فلسطين بعد اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣م، ضمّت منطقة قَمَرت بعضاً من مقرات حركة فتح ومنظمة التحرير، إضافة إلى منازل عدد من القيادات الفلسطينية.. وفي قَمَرت حصلت عملية اغتيال أحد أهم رجلين في منظمة التحرير الفلسطينية بعد ياسر عرفات، وهو صلاح خلف (أبو إياد) في شهر يناير من العام ١٩٩١م. حيث قام أحد أفراد حماية القيادي الفلسطيني هايل عبدالحميد (أبو الهول) بالترصد والمراقبة لحين زيارة أبو إياد لمنزل أبو الهول، حيث قام باغتيالهما سوياً قبل مغادرتهما بدقائق، واعترف بعد القبض عليه بأنه تم تجنيده وتكليفه بهذا الاغتيال من قِبَل أبو نضال (صبري البنا) زعيم الفصيل الصغير المُنشق

عن حركة فتح، والمسمى (حركة فتح المجلس الثوري)، الذي قام بعدة عمليات اغتيال مشبوهة لعدد من القيادات الفلسطينية.. وقد كشفت التحقيقات بعد ذلك عن خيوط إسرائيلية كانت وراء زرع هذا الرجل في طاقم حماية أبو الهول.. وقد دوّنت تفاصيل هذه الحادثة في فصلٍ تم إلحاقه بكتاب مهم لصلاح خلف، روى فيه شيئاً من تاريخ النِضال الفلسطيني، أسمه (فلسطيني بلا هَوية).

وكانت منطقة (سيدي بوسعيد) القريبة من قَمَرت، قد شهِدت قبل هذه العملية بثلاثة أعوام - في ليلة ١٦ إبريل ١٩٨٨م - عملية اغتيال القيادي الثاني بمنظمة التحرير خليل الوزير (أبو جهاد)، وذلك عبر تسلل فرقة كوماندوز إسرائيلية ونزولها إلى الشاطئ التونسي، ومن ثم اقتحام منزل أبو جهاد واغتياله، وسرقة عدد من الوثائق المُهمة.

نزلت في فندق (رمادا بلازا) الضخم، والواقع على شاطئ منطقة قَمَرت، وهذا الفندق مُصمم على شكل نصف دائرة، يتوسطها حوض سباحة كبير.

عندما تقف على شرفة غرفتك في هذا الفندق، ترى أمامك حوض السباحة المُحاط بمساحات واسعة من الحجر المرصوف بأناقة، ومن ورائه تبدو غابة كثيفة تمتد لقرابة المائتي متر، وبعد الغابة ترى زرقة البحر الممتدة حتى الأفق.. وأي شيء أكثر سحراً من أن تشرب شايك الصباحي على شرفة ترى فيها الغابة والبحر بنظرة واحدة.

وحين تتجول على قدميك في الباحة الداخلية للفندق، وبعد أن تتجاوز حوض السباحة، ستجد أمامك عدة ممرات متعرجة وصغيرة تأخذك إلى داخل الغابة، تسير في بعضها على جسور خشبية مُتحركة، وتُضاء هذه الممرات ليلاً بأضواء خافتة، فتغدو بداخلها ووسط ظُلمة الغابة وكأنك في كهفٍ صخري قديم مضاءٍ بالشموع.. وبعد أن تتجاوز الغابة، تصل إلى شاطئ البحر الرَملي الجمِّيل والمُمتد.

بعد وصولي المسائي إلى الفندق.. جلست لساعة في البهو بصحبة عبدالرحمن، لنواصل حديثنا عن بعض تفاصيل المشهد الثقافي التونسي، وسألته عن تنوع التيارات الفكرية والسياسية، وشرح لي بعضاً من تمايزاتها وصراعاتها وقضاياها.. وفي الثامنة مساءً شكرت عبدالرحمن على لطفه الغامر، وعلى إصراره

لاستقبالي في المطار، ثم صعدت إلى غرفتي مراعاة لضرورات ساعتي البيولوجية.

كان أكثر ما عانيته في زيارتي السابقة إلى تونس هو موضوع نوعية الطعام. فغالب المطاعم هنا تقدم الوجبات المحلية، ونادراً ما تجد مطاعم متخصصة في إعداد المطابخ العالمية المُختلفة.. وإذا كانت مطاعم الوجبات الأمريكية السريعة محدودة في المغرب، فهي معدومة في تونس!. وهو ما لم أجد له تفسيراً مقنعاً حتى الآن. خاصة ونحن نرى هذا النوع من المطاعم موجوداً حتى في الدول المتخاصمة فكرياً وسياسياً مع أمريكا والغرب، فكيف بدولة كتونس، ربما تُعد الدولة العربية الأكثر قرباً ـ ثقافياً وسياسياً ـ من أوروبا وأمريكا؟!.

قبل انتهاء رحلتي السابقة إلى تونس بثلاثة أيام، اكتشفت ـ بكل ما تحمله كلمة اكتشاف من متعة ـ وجود مطعمين اثنين يلاصقان أحد الفنادق الكبيرة بمنطقة قَمَرت، أحدهما هندي، والآخر إيطالي.. لذا كان أول ما فعلته في ليلتي الأولى بتونس أن توجهت إلى أحد هذين المطعمين.

وكان مما استغربته أن كثيراً من هذه المطاعم لا تُشرع أبوابها طوال النهار وحتى آخر الليل ـ كبقية المطاعم في الدول العربية ـ بل هي تفتح أبوابها في السابعة مساءً، وتُنهي عملها في الحادية عشرة مساءً. أي أربع ساعات من العمل لا غير!

في التاسعة مساءً كنت أسترخي على أحد المقاعد الوثيرة داخل المطعم الهندي.. أفتح جهاز الحاسب المحمول، وأقضي بعض الوقت في الكتابة، أو أقرأ صفحات من الكتاب الذي بحوزتي، ثم أتناول طعام العشاء، وبعد فراغي بربع ساعة ألتهم طبقاً صغيراً من الآيسكريم (بقيت ممنوعاً من تناول الآيسكريم وشرب أي مشروبات باردة لأكثر من عشرة أعوام، لأن لوزتيّ الكريمتين كانتا على استعداد للالتهاب الفوري بمجرد الشعور بوجود طبق آيسكريم في دائرة محيطها عشرة أمتار!، وبعد التهاب اللوزتين أظل أتعاطى عدداً من أقراص المضادات الحيوية لأكثر من أسبوع، التي أظن أنني التهمت منها في العشرة أعوام السابقة ما يُعادل حمولة شاحنة كبيرة!.. وقبل ستة أشهر فقط قمت بتنفيذ المشروع القومي الضخم، المتمثل في استئصال

اللوزتين.. ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش كل حالات الاستلاب والعشق للأطباق الباردة. وهو ما يمكن تفسيره بيولوجياً وفسيولوجياً وسوسيولوجياً باعتباره رد فعل عنيف جرّاء حرمان السنين السابقة!).. ومع انتهائي من تناول طبق الآيسكريم العظيم، أكون آخر الخارجين من هذا المطعم في الحادية عشرة مساءً.

من أكثر لحظات رحلتي صفاءً واستمتاعاً، هي جولتي التي تلي خروجي من المطعم. حيث أتجول على الأقدام قرابة الساعة متجهاً إلى الفندق الذي أسكن به، في مسافة تمتد لقرابة الثلاثة كيلومترات، أسير فيها بطرقاتٍ ضيقة تسودها العتمة، وسط غابات قَمَرت الكثيفة والمشبعة بعبق أشجار الصنوبر والزيتون، وفي هدوء الليل وسكونه، الذي لا أكاد أسمع فيه صوت بشر، ولا أزيز سيارة مارّة، متلبساً بحالة استثنائية من الصفاء والروحانية، بعد أن ضجرت أرواحنا من ضجيج الحياة، وضوضاء المُدن، وهدير أيامنا الصاخبة.

كانت هذه الجولة المُقدّسة هي زادي الذي لا أنتهك تركه كل ليلة.

* * * *

في التاسعة صباحاً تناولت طعام الإفطار، ثم امتطيت صهوة سيارة أجرة، وتوجهت إلى حيث يُقام المعرض الدولي للكتاب في إحدى ضواحي العاصمة.. وقضيت الطريق مستمتعاً برؤية المساحات الزراعية الواسعة، والبُحيرة المائية الكبيرة التي تقع على أطراف العاصمة، غير عابئ بثرثرة سائق التاكسي الذي أمضى ربع ساعة وهو يحاول إقناعي بأن مرض (إنفلونزا الخنازير) ما هو إلا مؤامرة أمريكية هدفها ضرب السياحة والاقتصاد في تونس!

كان قد مضى على بدء فعاليات معرض الكتاب قرابة الأربعة أيام.. ويُقام المعرض في قاعتين كبيرتين متصلتين ببعضهما في منطقة تُسمى (الكَرَمْ)، وبداخل هاتين القاعتين تشارك أكثر من ثمانمائة دار نشر عربية وأجنبية.

بدا لي أن المعرض قد حظي بتنظيم جيد، فتوزيع دور النشر كان بحسب الدول التي تنتمي إليها هذه الدور، والممرات بينها واسعة ومريحة، والتكييف والإضاءة جيدان، وهناك مواقع خاصة لإلقاء المحاضرات وإقامة الفعاليات الثقافية، ومواقع أخرى للمطعم والمقهى.. وتظل أبواب المعرض مُشرعة منذ التاسعة صباحاً حتى السادسة مساءً.

ما بدا للوهلة الأولى غريباً بالنسبة لي، أن نساءً كن يتولين البيع في كثير من دور النشر، وهو أمر غير معتاد في بقية المعارض العربية التي شهدتها.

أغلب دور النشر اللبنانية والمصرية التي اعتدنا رؤيتها في معارض الكتب كانت مُشاركة، كما شاركت قرابة الخمس من دور النشر الإيرانية، إضافة إلى عدد كبير من دور النشر التونسية التي لم نعتد على حضورها لمعارض المشرق العربي. وكان الجناح المُخصص للمؤسسات الرسمية السعودية موجوداً أيضاً ويحتل مساحة واسعة. ويقع بقرب جناح كبير مخصص لعرض منشورات مؤسسة ثقافية أمريكية بدت وكأنها رسمية الطابع.

قضيت الساعتين الأوليين في ممارسة التكتيك الذي أقوم به عادة في زياراتي الأولى لمعارض الكتب. حيث أجري جولة مسحيّة أحاول فيها التعرف على جغرافية المكان، وطبيعة الدور المشاركة، وطريقة توزيعها، كي أعرف بالتحديد ما الذي يعنيني منها. وتتضمن هذه الجولة دقائق للسلام والدردشة مع العارضين في بعض دور النشر، الذين غدوا أصدقاءً لكثرة ما نلتقيهم في معارض الكتب.

بعض دور النشر التي أعرفها بدت غريبة بالنسبة لي!. فـ (دار الساقي) التي لا تستطيع في معرض الرياض أن ترى ملامح وجه المسؤول عن الجناح (عصام حمدان)، وذلك لكثرة اكتظاظ الناس حوله، بشكل يشبه اكتظاظ فقراء مكة في رمضان على موزعي طعام الإفطار قبل أذان المغرب. تراه في معرض تونس للكتاب يجول في جناحه وحيداً، بعد أن ملّ من الجلوس والتأمل بوجوه المارين!!.. وما يجري في (الساقي) يجري أيضاً في دور نشر عديدة.

كان واضحاً أن مقدار البيع في هذا المعرض محدود وضئيل، حتى إن أحد

الناشرين قال لي وهو يضحك: أهم ما في هذا المعرض أنه يُسهم في توثيق العلاقة بين الناشرين الذين يقضون وقتاً طويلاً دون شغل، سوى بالحديث فيما بينهم.

أثناء تجوالي بين أجنحة المعرض، بدأت ألحظ حجم التفاوت الساخر بين أسماء بعض دور النشر - التي توحي بأنك أمام مراكز أبحاث ضخمة واستثنائية، ونوعية الكتب التي تخصصت هذه الدور في إصدارها.

فمثلاً تجد أن (دار الحرية) متخصصة في نشر كتب عن (فراش الزوجية) و(أوصاف النساء) و(فوائد النكاح) و(فنون الجنس) وسوى ذلك من موضوعات تمس أعماق الحرية الليلية للكائن الجنسي.

وتجد أن (دار المعارف) مهتمة بنشر روايات شعبية من مثل (سندريلا تعود) و(روبن هود) و(عودة المحارب). وسواها من الحكايات التي تربى عليها مراهقو ما قبل النكسة.

أما (دار الموسوعات) فهي تهدف إلى تحقيق أحلام الشباب المتشرد، وذلك عبر نشر كتب تُعلّمه كيف يصبح مليونيراً قبل إتمام شرب فنجان القهوة!، وكيف يُصبح رئيس دولة في أسبوع - فاتهم أنه يمكنه عبر انقلاب عسكري أن يصبح رئيس دولة في يوم! .. وسوى ذلك من خطط جاهزة للتنفيذ!.

كما تجد أحياناً بعض الكتب التي لا تخلو عناوينها من ظرافة. كالكتاب المعنون بـ (العلاقات السريّة بين أمريكا وإسرائيل)!. ولا أدري ما دواعي السرية بهكذا علاقة!، حتى بدا الأمر وكأن الكاتب يتحدث عن اكتشافه لعلاقات سريّة بين طالبان وأمريكا، أو بين إيران وإسرائيل!!

أثناء مروري على صديق مسؤول عن البيع في دار نشر شيوعية لبنانية شهيرة، سألته: شو، كيف البيع عندك؟.. أجابني بحسرة: تعبان، ما في شِي.. رددت عليه مبتسماً: قلت لكم اقلبوها مكتبة إسلامية وانتو تشوفوا البيع، فلم يعد هذا زمانكم يا صديقي.. أجابني بضحكته المُجلجلة: انشاالله، يمكن بعد مية سنة.

ووسط أجواء المعرض التي اكتسبت بعض النعومة بعد تولي بعض النساء

للبيع ـ بصراحة لم أهضم قصة أن تتولى فتاة بيع الكتب بنفس الأسلوب الذي تبيع به علبة مكياج أو زجاجة عطر! .. إلا أن بعض دور النشر ـ كـ (مكتبة مدبولي) المحروسة ـ لا تزال تُصر على أن تُرسل بائعاً ضخم الجثة، وعريض المنكبين، وحاد النظرات، وأجش الصوت، وحليق الشعر واللحية والشارب، ويشبه بعض نجوم حلبات المُصارعة الحرة!.. لأنك ساعتها ستخشى من دخول الجناح، حتى لا يقوم البائع بصفعك أو تعليقك على أحد الرفوف، لمجرد أنك قمت بسؤاله عن كتاب ثم قررت عدم شرائه!.

أيضاً قضيت وقتاً ممتعاً في الجناح الكبير لـ (مركز الدراسات الجامعية)، الذي يحوي غالب الرسائل والأطروحات التي صدرت عن الجامعات التونسية. لأن هذه الأطروحات لا تحظى عادة بانتشار واسع بسبب صدورها عن مراكز جامعيّة مُتخصصة، رغم أن كثيراً منها يناقش موضوعات مهمة وعميقة، ولها قيمة علمية رفيعة.

كما استفدت من الساعات الطويلة التي أقضيها داخل المعرض في ترتيب مواعيد التقائي ببعض الأكاديميين والباحثين. حيث التقيت خلال الأيام الثلاثة التي أمضيتُ نهاراتها في معرض الكتاب عدداً من الباحثين، كالدكتور محمد الرحموني، والدكتور الباجي القمرتي، والدكتور شكري المبخوت، وعدداً آخر من الباحثين.

أثناء انتظاري لأحد الباحثين عند عصام حمدان في دار الساقي، ألقيت نظرة على الكتب المعروضة فوق أحد الرفوف القريبة مني، ثم سحبت رواية (نساء المنكر) لسمر المقرن وبدأت بتصفحها.. وبصراحة أنا ممن يخجلون من شراء بعض الكتب، التي أظن أن مجرد وجودها على رفوف مكتبتي يغيض كثيراً من الكتب الرصينة الأخرى التي تشعر بأنها تعرضت لإهانة معنوية بالغة، كتلك التي يشعر بها الأستاذ الجامعي المرموق حين يُعيّن في مدرسة لتعليم الأطفال!.

بدأت بتمضية الوقت في قراءة صفحات من هذه الرواية.. ولأن صفحاتها لا تتجاوز الثمانين من القِطع الصغير، لم تمضِ ساعة إلا وقد فرغت من قراءتها. (صادف أن اتصل الباحثَ معتذراً لاضطرارهِ إلى التأخر لمدة ساعة بسبب ظرف

طارئ ألمّ به).. ورغم بساطة الأسلوب وركاكته وخلوّه من الجماليات، إلا أن هذا لم يكن أكثر ما لفتني في الكتاب.

كان أول ما أحسستُ به بعد فراغي من قراءة هذه المدوّنة العظيمة!، أن شعَرتُ بتفهم لكثيرٍ من العُنف الذي يُبديه بعض المتدينين تجاه بعض الكُتّاب الليبراليين في السعوّدية.. فكتاب من هذا النوع، تتحدث فيه كاتبته - وبكل براءة! - عن المُتطرفين والإرهابيين والمُتخلفين الذين يمنعون المرأة من حقها في إقامة علاقات جنسية مع حبيبها!!.. ثم تتساءل: كيف يمنعونها من ذلك وبينهما رباط الحب المقدس؟!.. حتى ليُخيّل إليك للحظة أنك تقرأ لكاتبة دنماركية تم التقاطها عنوة من شوارع (كوبنهاغن) لتوضع فجأة في شوارع (بريدة)!، لا لفتاة من عائلة نجديّة صميمة، ربما لم تحصل على جواز سفر إلا بعد أن أتمّت عامها العشرين!.

وحين تأتي الكاتبة على ذكر هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تتحدث عن العاملين بها باعتبارهم كائنات متوحشة قدمت من العصر الجوراسي الديناصوري. فهم لا يتعاملون مع الفتاة التي تمارس حقها (المشروع) في الخلوة بحبيبها!، سوى بالضرب والعنف وكيل اللكمات وتكسير الرأس وخلع الأسنان - بقي الحديث عن أحواض الأسيد - وسوى ذلك من صور قد تقرؤها في سير معتقلي السجون الروسية إبان العهد الشيوعي!.. إضافة إلى حديثها عن حصول الفتاة على أحكام سجن طويلة بسبب فعلتها تلك.

رغم أنه من القضايا المثارة ضد هيئة الأمر بالمعروف، أنها تعامل بتمييز بين الشاب والفتاة في حال القبض عليهم بقضية خلوة غير شرعية.. ففي الوقت الذي تُحيل فيه الشاب إلى القضاء الذي قد يُصدر عليه أحياناً حُكماً بالسجن. تكتفي بأن تتصل - وبتكتم شديد عملاً بمبدأ الستر - على ولي أمر الفتاة. بحيث لا يزيد الأمر على أن يقوم بتوقيع تعهّد، ومن ثَمّ تخرج الفتاة بصحبة ولي أمرها إلى البيت.

استطعت في اليوم الأول من زيارتي إلى المعرض أن أتعرّف على أغلب الدور المشاركة، وزيارة بعضها، وهو ما سيجعل جولتيّ غداً وبعد غد أكثر تركيزاً.. ومع

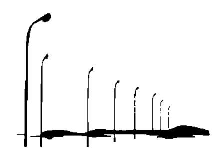
غلق أبواب المعرض في السادسة مساءً خرجتُ متوجهاً إلى الفندق.

وكما فعلتُ البارحة.. كنت في الثامنة والنصف مساءً في زاوية خافتة داخل المطعم الإيطالي. وبرفقتي هذه الليلة كتاب ظريف حدثني عنه الصديق حسام تمام عندما كنّا في المغرب، وقد صدر هذا الكتاب قبل أيام فقط عن مكتبة مدبولي، واسمه (فيصل، تحرير.. يوميات الديسك والميكروباص). وهو الكتاب الوحيد الذي تجرّأت على أن أسأل عنه مصارع مكتبة مدبولي، لأنني كنت أنوي شراءه على كل حال.

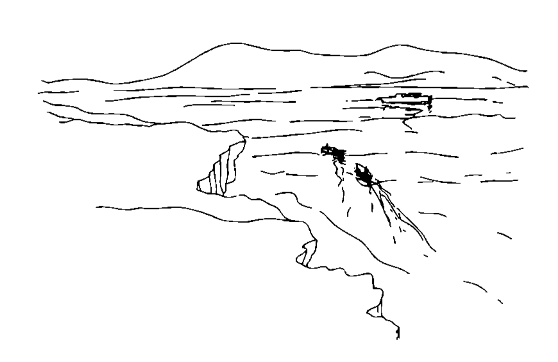
في هذا الكتاب مخزونٌ هائل من خِفة الظل، وهو مشبع بالروح المِصرية المرحة، حيث يحكي عن أمرين اثنين.. أولهما عن هموم (صحفيي الديسك)، الذين يتولون عادة استلام المواد المكتوبة من قِبل الصحفيين، ومن ثَمّ تصحيحها وتعديلها وتهيئتها للنشر، بكل ما في هذه المَهَمّة من تعب ممزوج بفكاهة تجدها في أخطاء الصحفيين المُبتدئين.. والثاني عن عالم حافلات النقل الصغيرة (الميكروباص)، والتي يستقلّها عادة محدودو الدخل، وخاصة في خط سير الحافلات الذي يصل بين منطقتي (فيصل) و (التحرير) بوسط القاهرة.

الكتاب - في شِقه الميكروباصي - يحوي كمّاً رائعاً من اللغة الساخرة التي استطاع كاتبها وبذكاء أن يلتقط ويدوّن المشاهد اليومية للإنسان المصري البسيط.. وفي شقه الديسكاوي يحتوي أيضاً على قدر كبير من الظرافة التي تأتي في التفاصيل اليومية للعمل الصحفي، بحيث يجد من يشتغل بالصحافة في ثنايا هذا الكِتاب كمّاً من التجارب المِهنية المُمتعة والمُفيدة.

ومع إغلاق المطعم لأبوابه في الحادية عشرة مساءً، خرجت لأستمتع بجولتي الليلية على الأقدام، في هدوء قَمَرت، وأحراشها، وسوادها الممتد حتى الأفق.



أرقب الضياء الممتد
فوق جبل سيدي بوسعيد



2

اتفقت مع الصديق عبدالرحمن على أن نقوم اليوم بأداء صلاة الجمعة في جامع الزيتونة. وقد عرفت منه أن صلاة الجمعة في الزيتونة لا تبدأ إلا قرابة الساعة الثانية والنصف ظهراً، بحيث تنتهي في الثالثة والربع، ثم تؤدى صلاة العصر بعد ذلك بنصف ساعة.

في العاشرة صباحاً بدأت بجولتي الصباحية في أروقة معرض الكتاب.. ورغم أنني لم أجد في ثنايا المعرض إصدارات جديدة تستحق الذكر، إلا أنه بدا لافتاً وجود الكتاب الإسلامي والتراثي بوضوحٍ وانتشارٍ جيدين، وكنت أظن أنهما سيُلاقيان تضييقاً ومنعاً من الدخول.

أثناء تجوالي مررت على الصديق المسؤول عن الدار الشيوعية اللبنانية الذي لا أدري كيف خمّن أن لدي ميولاً يسارية، ربما لكوني قلت له أثناء حديثنا عن كتاب كارل ماركس (رأس المال) أنني قرأت هذه الكتاب في (الزَمَنَات). لذلك قرر أن ينتحي بي جانباً كي يعرض عليّ أن أفتش لهم عن مُمولٍ لمشروع طباعة هذا الكتاب بمُجلداته الخمسة الكبيرة!. ولم أجد أمام حماسته سوى أن أعده مازحاً - ولا أدري إن كان اكتشف أنني أمزح أم لا! - أن أفتش له عن جمعية دعويّة تتبنى تمويل هذا (المشروع الخيري!) الذي قال أنه يحتاج إلى ستين ألف دولار!

عند دار الهادي اللبنانية ـ المقرّبة من حزب الله ـ توقفت لبعض الوقت. حيث تصفحت عدداً من إصداراتهم القيمة، وبخاصة تلك الكتب التي تصدر ضمن سلسلة (فلسفة الدين والكلام الجديد) المعنية بموضوعات الفكر الإسلامي والقراءات الجديدة للتراث.. ومن الظريف أن أحد الباحثين الذين أصدروا كتاباً ضمن هذه السلسلة أخبرني أنه تفاجأ ـ بعد إصدار كتابه طبعاً ـ بأن الدار قامت بتغيير كل جملة أتى فيها على ذكر الرسول ثم ألحقها بقوله (صلى الله عليه وسلم) إلى جملة (صلى الله عليه وآله) كما تُستخدم عادة في الأدبيات الشيعيّة!.

لاحظت أيضاً خلال جولتي أن من أبرز دور النشر التونسية المعنية بالإنتاج الفكري والفلسفي، داري (محمد علي) و (بوسلامة) اللتين أصدرتا عدداً من الكتب لأهم الباحثين التونسيين. ككتب محمد بوهلال، وأبو يعرب المرزوقي، وسواهم.

في الثانية ظهراً توجهت برفقة عبدالرحمن إلى تونس القديمة، حيث جامع الزيتونة التاريخي الذي بُني على هيئة مسجد صغير في عهد الدولة الأموية عام ١١٦هـ، ويُعد ثاني مسجد بُني في تونس بعد مسجد عقبة بن نافع الموجود بمدينة القيروان الواقعة في وسط الصحراء.

في مدخل المسجد بدت لوحة كبيرة كُتب عليها (الرئيس زين العابدين حامي حمى الدين). وخلفها يأتي المدخل الرئيس المؤدي لباحة المسجد الواسعة، حيث تُحلّق في سمائها أسراب الحَمَام الأورق (كحمام الحرم)، وسط تدفق جموع المصلين إلى مبنى المسجد.

وبين أعمدة المسجد الرخامية الكثيفة، جلستُ وسط المصلين في فسحة مقابلة للمنبر الذي سيعتليه الخطيب.. وبعد دقائق فُتح الباب المجاور للمنبر، ودخل ثلاثة رجال مُعممين، كان الإمام في مقدمتهم، واتجه أحدهم لرفع أذان صلاة الجمعة.

خلال جلوسي اتضح لي أن لصلاة الجمعة في جامع الزيتونة طقوساً بدت مختلفة بعض الشيء عن تلك التي شهدتها في عدد من الدول العربية.. طريقة ترداد المؤذن للتكبيرات بعد الإمام أثناء الصلاة.. الأدعية والتراتيل المُتعددة.. إضافة

إلى تأخير صلاة الجمعة حتى آخر وقتها، بحيث لا يتبقى على صلاة العصر سوى نصف ساعة.

بعد انتهاء صلاة الجمعة بدأت تعلو أصوات المصلين بالذِّكر والدُعاء.. وفي زاوية المسجد الواقعة على يمين المنبر تجمّع عشرات المصلين، وقاموا بتلاوة بعض الأذكار بطريقة جماعية وبمهارة واتساق عاليين، فقاموا بتعداد أسماء الله الحسنى، ثم بتلاوة سورة الرحمن، ثم رددوا بعض الأدعية والأذكار، حتى رفع المؤذن نداء صلاة العصر.

بعد صلاة العصر توجهت بصحبة عبدالرحمن للتجول في طرقات تونس القديمة التي يقع جامع الزيتونة في أحد أطرافها.

مدينة تونس القديمة بُنيت في العهد الإسلامي، وهي تقع بالقرب من مدينة قرطاج التاريخية التي أسسها الفينيقيون في العام ٨١٤ قبل الميلاد. ولم تُعرَف تونس كمدينة كبيرة إلا بعد أن حكم الحفصيون الأراضي التونسية الحالية بعد إسقاطهم لحكم الموحدين في العام (٦٢٦هـ / ١٢٣٦م)، وقد امتد حكمهم لمدة تزيد على الثلاثمائة وخمسين عاماً، وسقط على أيدي الأتراك العثمانيين في العام (٩٨٢هـ / ١٥٧٤م)، حيث اتخذ الحفصيون من مدينة تونس عاصمة لهم. وقبل ذلك كانت مدينة القيروان هي عاصمة الإقليم.

وتُعد تونس القديمة اليوم منطقة سياحيّة بامتياز، حيث يحدها من الشمال الشارع الأكثر شهرة في تونس (شارع الحبيب أبورقيبة) الذي يتميز بوجود أرصفة واسعة للمشاة، على أطرافها عشرات المقاهي والمطاعم والمعارض التجارية، فيما يمكن اعتباره محاكاة لشارع الشانزليزيه الباريسي الشهير.. فإذا سِرت في هذا الشارع باتجاه الجنوب، سينتهي الطريق ببوابة أثرية كبيرة، تدلف منهاَ على المنطقة الواسعة التي تُسمى اليوم بـ (تونس القديمة)، وهي منطقة لا تدخلها السيارات، وإنما يمكنك أن تتجول بها فقط سيراً على الأقدام.. وفي حال قطعت هذه المنطقة القديمة بالكامل، فستصل إلى طرفها الجنوبي حيث يقع جامع الزيتونة.

وسط تونس القديمة عشرات الطرقات والأزقة الملتوية والضيقة، التي قد تتيه في مسالكها ولا تدري أين غدا طريق الخروج، وهو مما يزيد جولتك متعة وتشويقاً. فحين تمشي على غير هدىً، تدلف كل حينٍ إلى زقاق ضيق وممتد، لترى على جانبيه دكاكين جديدة ومعروضات مختلفة ومبانيٍ قديمة.

حَظِيَت هذه المدينة القديمة كما يبدو بكثير من الاعتناء، فهي تحوي اليوم مئات الدكاكينَ التي تبيع مشغولات التراث القديم، والأواني الفخارية بألوانها الزاهية، ومنحوتات خشب الزيتون، والأزياء التونسية التقليدية، ومعروضات أخرى كثيرة.. إضافة إلى العديد من المقاهي المُصممة على الطراز المحلي القديم.

بعد جولة امتدت لقرابة الساعة في الطرقات وبين الدكاكين، كنا على موعد في الساعة الخامسة مع الأستاذ محمد القوماني في أحد المقاهي الهادئة بوسط تونس القديمة.

* * * *

محمد القوماني اسمٌ بات يتردد كثيراً هذه الأيام في الصحافة المحلية، بسبب قيادته لانشقاق حصل في صفوف (الحزب الديمقراطي التقدمي) الذي يُعد من أعلى الأحزاب السياسية صوتاً في معارضة السُلطة التونسية.

وقد حصل هذا الانشقاق الذي قاده عدد من أعضاء المكتب السياسي للحزب بسبب تصاعد حدة الخلافات بين الجناح الذي يتبنى مزيداً من التصعيد في العلاقة مع السلطة، وتقوده الأمينة العامة للحزب (مية الجريبي) ومعها عدد آخر من القيادات، والجناح الذي يدعو إلى المعارضة الهادئة التي تستفيد من المكتسبات وتطالب بالمزيد، ويقوده محمد القوماني وفتحي التوزري وآخرون.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وعلى أثرها حصل الانشقاق، هو الخلاف الذي حصل بسبب مشاركة محمد القوماني في الدورة الثامنة لمؤتمر الدوحة الدولي للديمقراطية والتنمية، وهو المؤتمر الذي يثير جدلاً مستمراً كل

عام في الأوساط الصحفية بالعالم العربي، وذلك لمشاركة شخصيات إسرائيلية على الدوام في فعالياته.. وقد قالت قيادة الحزب الديمقراطي التقدمي أن مشاركة القوماني كانت دون موافقة الحزب، فيما أكد القوماني موافقة الحزب على مشاركته في المؤتمر.

وفي تونس حالياً تسعة أحزاب سياسية معترف بها قانونياً، أحدها (حزب التجمع الدستوري الديمقراطي) ويرأسه الرئيس زين العابدين بن علي، الذي يحكم تونس منذ الانقلاب على الحبيب أبورقيبة في ٧ نوفمبر ١٩٨٧م. أما بقية الأحزاب الثمانية فهي أحزاب مُعارضة. وثمة أيضاً أحزاب كانت فاعلة في السابق، لكنها باتت محظورة اليوم، كحزب النهضة الإسلامي، وحزب العمال الشيوعي، وسواهما.

وبمعزل عن احتكار الحزب الحاكم للسلطة في تونس، يبدو أن أحزاب المعارضة لا تحظى بحضور كبير في الشارع، وهو ما أفقد الحياة السياسية في تونس كثيراً من الحيوية والتنوّع. وقد انعكس ذلك أيضاً على حضور المعارضة في البرلمان الذي تبلغ عدد مقاعده حالياً ١٨٩ مقعداً ـ في شهر مارس الماضي تم اتخاذ قرار بزيادة عدد مقاعد البرلمان ٢٣ مقعداً، ليصبح مجموعها ٢١٢ مقعداً، ولن تتم الزيادة الفعلية إلا بعد إجراء الانتخابات البرلمانية التي ستُقام بعد عدة أشهر في خريف العام ٢٠٠٩م ـ. بحيث لا تحظى جميع أحزاب المعارضة التي شاركت في الانتخابات البرلمانية الأخيرة بأكثر من ٣٧ مقعداً فقط، أي ما يشكل ٢٠٪ من المجموع الكلي لمقاعد البرلمان.

وفي تونس ـ كما المغرب ـ لا وجود لمنصب (رئيس وزراء)، بل يوجد منصب (وزير أول) يحظى ببعض الصلاحيات الإدارية. ولكن من يرأس اجتماعات مجلس الوزراء هو رئيس الدولة نفسه.

في مقهىً تقليدي أنيق يقع على زقاق ضيق مرصوف بالحجر، التقينا الأستاذ محمد القوماني، الذي تربطه بصاحبي عبدالرحمن صداقة قديمة.

سألت الأستاذ القوماني عن طبيعة المشهد السياسي التونسي، وعدد الأحزاب

التونسية واتجاهاتها السياسية، وعن الانشقاق الذي قاده في صفوف الحزب الديمقراطي التقدمي.. وحدثني أيضاً عن شيء من تجاذبات المشهد الثقافي المحلي وتنوعاته الفكرية، خاصة أنه من المحسوبين على التيار الإسلامي في تونس، وكان من الشخصيات الفاعلة في مجموعة (الإسلاميين التقدميين) التي تشكلت في بداية الثمانينيات.. كما اتفقت معه على أن أزور غداً (منتدى الجاحظ) الذي يُعد واجهة ثقافية مُختلفة عما هو سائد في تونس، ويتولى الأستاذ القوماني موقع الكاتب العام للمنتدى.

في السادسة والنصف خرجنا سوياً لنتجول في أزقة تونس القديمة، ونحن في طريقنا باتجاه شارع الحبيب أبورقيبة حيث تقف سيارة عبدالرحمن، وكانت زخّات المطر الخفيفة التي توالت بالهطول تُصاحبنا في هذا المساء الرائق.. التقطنا عدة صورٍ أمام البوابة الأثرية، ثم توقفنا عند أحد الأكشاك لشراء بعض الصحف التونسية.

وتصدر في تونس العديد من الصحف باللغة العربية، كصحف: الصباح، الحرية، الصحافة، الشروق.. إلا أن (صحيفة الموقف) التي يُصدرها الحزب الديمقراطي التقدمي.ورغم تواضع إمكاناتها.تُعد هي الأكثر جرأة ونقداً في الصحافة التونسية، بشكل ساهمت فيه وبوضوح في رفع سقف الحريات الصحفية.

صاحبي العزيز عبدالرحمن لم يكن يُخفي قلقه ونحن نُفتّش عن سيارته من أن تكون إدارة المرور قد قامت بسحبها.. كان عبدالرحمن يلتفت إلي كل قليل ويقول: (الله يستر لا تكون انسحبت السيارة).. ولأنني كنت مُنهكاً وتحت ضغط ساعتي البيولوجية التي تُلزمني بضرورة الراحة بين شوطي الصباح والمساء، قلتُ له مازحاً وأنا أضحك: صدقني، لو سحبوا سيارتك فسأحزن لأجلك كثيراً يا صديقي، ولكن هذا لن يغير من حقيقة أنني سأوقف أقرب تاكسي كي يوصلني إلى الفندق!

بعد قليل وجدنا السيارة المفقودة.. شكرت الأستاذ القوماني على لطفه.. وودعته على أمل اللقاء به في اليوم التالي بمُنتدى الجاحظ.

ونحن في طريق العودة إلى الفندق، تحدثت مع عبدالرحمن عن ظاهرة بدت

لي لافتة في كلتا زيارتي الأخيرتين إلى تونس. حيث تكوَّن لدي انطباعٌ بأن الشعب التونسي مهتمٌّ بشأن التنمية الاقتصادية والرفاه المادي أكثر من اهتمامه بقضايا الحريات السياسية والدينيّة. وأنه رغم هيمنة الحزب الحاكم على السلطة لأكثر من عشرين سنة، ورغم السجل السيئ لتونس في ملفات حقوق الإنسان والحريات العامة، إلا أنني فوجئتُ ـ بعكس ما كنت أظن ـ أن للحزب الحاكم في تونس شعبية جيدة بحسب ما لمسته عند كثيرين. وترتكز هذه الشعبية على أن الحكومة أو السلطة أحدثت وضعاً اقتصادياً جيداً في تونس. حتى إنني سمعتُ مَثَلاً مُحدداً من عدة أشخاص، يتمثل في التالي: تونس بلد بلا موارد طبيعية، لا بترول، ولا غاز، ورغم ذلك تعيش في وضع اقتصادي جيد نسبياً، وفي ذات الوقت هي محاطة ببلدين يرقدان على مخزونات بترولية ضخمة (ليبيا والجزائر)، ومع ذلك فالوضع الاقتصادي للمواطن التونسي أفضل حالاً من ذاك الذي يعيشه المواطن في ليبيا والجزائر.

طبعاً هذا النموذج يزيد من تأكيد القاعدة السياسية التي تقول: إن الرفاه الاقتصادي هو الخَصم الأول للإصلاح السياسي. وأن المجتمعات ستكون أكثر رغبة في التغيير واستعداداً للنضال السياسي في حال تردي أوضاعها الاقتصادية. أما في حال تحسن الوضع الاقتصادي، وارتفاع مؤشرات الرفاه، فستتضاءل حينئذٍ رغبة الناس في التغيير.

وهذه القاعدة السياسية ـ ولها شواهد كثيرة في التاريخ ـ عن علاقة خيارات الناس بالعامل الاقتصادي، تضع الحركة الإسلامية أمام تحدٍ صعب جداً.. فماذا ستفعل الحركة الإسلامية في حال وصلت إلى الحُكم في بلدٍ كتونس؟، أكثر من ٦٠٪ من دخله القومي يأتي من السياحة التي تعتمد على ستة ملايين سائح سنوياً، ٩٥٪ منهم أوروبيون يأتون لتونس من أجل الاسترخاء شبه العاري على الشواطئ الدافئة نهاراً، والسهر على شرب الخمور ليلاً؟!!

فهل ستُلغي الحركة الإسلامية هذا النشاط السياحي لتعيش على بِساط الفقر؟!.. لأن الشعب (الذي افتقر بعد غنى) سيثور عليها حتماً.. أمْ ماذا يُمكنها أن تفعل؟!

وهذا المشكلة ليست حكراً على تونس، بل هي حاضرة في مِصر والمغرب ولبنان وسواهم من الدول العربية التي تعتمد في جزءٍ كبيرٍ من دخلها على السياحة الأوروبية.

أعتقد أن تعقيدات السلطة، وضغوطات الأمر الواقع، وعبء رعاية مصالح الناس وتحسين أوضاعهم الاقتصادية، هي (ورطة) لم تتهيأ لها كثير من الحركات الإسلامية الطامحة للمُشاركة في الحكم.

* * * *

لم أقضِ في غرفتي سوى ساعة مضت بين قدر من الاسترخاء، وأداء صلاتي المغرب والعَشاء جمعاً، وبعض الاتصالات السريعة.

نزلتُ إلى الشارع مجدداً قرابة الساعة الثامنة والنصف، وركبت سيارة أجرة متجهاً إلى المطعم الذي أتناول فيه وجبتي المسائية كل ليلة.

وفي زاوية خافتة داخل المطعم الهندي فتحت جهاز الحاسب المحمول، وشرعت أدون بعضاً من هذه اليوميات.

وعند الساعة الحادية عشرة، وبعد أن أتممت طقوسي العَشائية، خرجت من المطعم ساعة إغلاقه، وبَدَأتْ لحظات متعتي الليلية بالعودة سيراً على الأقدام وسط غابات قَمَرت الكثيفة، وسكونها الوجل، وشوارعها الخافتة.

في منتصف الطريق قدحت في ذهني فكرة، وهي أن أذهب هذه الليلة إلى منطقة (سيدي بوسعيد) الجبلية.. وسيدي بوسعيد تُعد من أجمل المناطق السياحية في تونس، فهي مُرتفعة بعض الشيء عن سطح البحر، وفي أحد أطرافها يوجد مُرتفعٌ جبلي يُطل مباشرة على البحر الأبيض المتوسط، حيث ترى من فوق الجبل امتداد الشاطئ المُضاء لتونس، في منظر رائع أصبح اليوم من

أهم المناطق التي يرتادها السياح، وخصوصاً في فصل الصيف، حيث يمنحك ارتفاع الجبل بعضاً من نسائم الهواء الباردة والعليلة.

ومنطقة سيدي بوسعيد مُتاخمة لـ (قرطاج) العاصمة التاريخية الشهيرة للفينيقيين، الذين قدِموا بسفنهم الضخمة عبر البحر المتوسط من مدينة (صور) اللبنانية، وبنوا مدينة قرطاج في العام ٨١٤ قبل الميلاد. وقد امتدت الدولة القرطاجية الفينيقية لقرابة السبعمائة عام، وخاضت كثيراً من الحروب العنيفة مع الرومان، كان من أشهرها تلك التي قادها القائد القرطاجي الأكثر شهرة (حنِبعل) الذي لاحق الرومان في عقر دارهم، وعبر جبال الألب، واحتل عاصمتهم روما لسنين عديدة، بل وصنع في حروبه خططاً عسكرية غير مسبوقة في التاريخ، رغم أنه كان في العشرينيات من عمره حين تولى قيادة هذه الحروب. لذا يُعد (حنِبعل) اليوم من أعظم القادة العسكريين في التاريخ، وتحتفي الدولة التونسية الحديثة باسمه وبتاريخه، فهناك اليوم قناة فضائية باسمه، وعدد من الفنادق الضخمة والمرافق الأخرى.

في زيارتي السابقة لتونس قبل عامين تجولت في قرطاج القديمة، ورأيت المُدرّج الحجري الكبير في وسط المدينة، الذي يُقام فيه حالياً مهرجان قرطاج الفني. ورأيتُ أيضاً مواقع تاريخية للاستعراضات العسكرية، والخزانات الضخمة لحفظ الماء، والمقابر القديمة، وما بقي من مبانٍ وآثار قديمة، والعديد من الآثار الفينيقية المحفوظة حتى اليوم.

وقد سنحت لي زياتي السابقة التي امتدت لأسبوعين أن أتجول في العديد من المدن التونسية، فزرت مدينة القيروان التاريخية الشهيرة، التي بناها التابعي الجليل عقبة بن نافع سنة ٥٠ للهجرة في وسط الصحراء التونسية، وبنى في وسطها المسجد الجامع الذي يُسمّى اليوم مسجد عقبة بن نافع، ويُعد ثاني أقدم مسجد بُني في أفريقيا بعد مسجد عمرو بن العاص في القاهرة، وقد صلّيت في هذا المسجد ودُهشت لِكِبر حجمه وضخامة مناراته واتساع باحاته الداخلية.. وتجولت أيضاً في حارَات القيروان القديمة وأزقتها الضيقة الملتوية، ودخلت عدداً من دكاكينها المشهورة بصناعة السجاد.. كانت هذه المدينة بحق قطعة من

التاريخ الإسلامي القديم. تشم في زواياها ومسالكها عبق الأزمنة الغابرة. وتشعر وأنت تسير في طرقاتها أنك تعيش في ثنايا تلك الأزمنة.. تطأ تُرابها.. وتتنفس هواءها.. وتجول في مساربها ووجدانها.

في رحلتي تلك زرت أيضاً مدينتي (الحمامات) و (سوسة)، اللتين تُعدان من أكثر المدن التي يرتادها السياح الأوروبيون، وتقعان جنوب العاصمة تونس، وتُطلان على البحر الأبيض المتوسط، وبهما عدد كبير من المرافق السياحية، والفنادق الضخمة، والأسواق الشعبية والحديثة.

أيضاً زرت مدينة (طبرقة) التي تقع بالقرب من الحدود الجزائرية، وتُطل أيضاً على البحر الأبيض المتوسط، وبها قلعة تاريخية شهيرة. ولكونها منطقة جبلية مُطلّة على البحر، إضافة إلى كثافة الغابات والأحراش المحيطة بالمدينة، جعلها ذلك تتميز باعتدال الجو صيفاً وبرودته شتاءً.. كذلك فإن الطريق إلى هذه المدينة هو بحد ذاته مُتعة أخرى، حيث لا تمل من رؤية غابات الزيتون بخضرتها الداكنة، ومزارع القمح الممتدة بصفرتها الباهتة، إضافة إلى العديد من البحيرات والجبال والقرى التي تُشاهدها أثناء الطريق.

انتهت جولتي على الأقدام عائداً إلى الفندق في قرابة الساعة الثانية عشرة ليلاً.. ركبت مع أول سيارة أجرة مرّت بقربي، وتوجهت إلى منطقة سيدي بوسعيد.

عادة ما تبقى المقاهي في منطقة سيدي بوسعيد مُشرعة الأبواب حتى حدود الفجر. ولكنني فوجئت عند وصولي أن المنطقة كانت خالية تماماً، وأن المقاهي أوصدت أبوابها في الساعة الثانية عشرة. فعرفت حينئذٍ أنها لا تُطيل البقاء ليلاً إلا في الصيف. أما في مثل هذه الأوقات، ونحن في آخر شهر إبريل وأول شهر مايو، حيث لا تزال النسائم الباردة تجعل من الجلوس المتأخر في الهواء الطلق أمراً صعباً، إضافة إلى أن موسم السياحة لم يأتِ بعد، لذلك تُغلق هذه المقاهي أبوابها عند منتصف الليل.

بالنسبة لي، خلو المكان يُكسبه رونقاً خاصاً، لذا لم أفوّت فرصة التجول في

طرقات سيدي بوسعيد الجبلية المرصوفة بالأحجار، والمُضاءة بفوانيس خافتة تزيد المكان سِحراً وجمالاً.

امتدت بي جولة الصعود حتى وصلتُ إلى قمّة جبل سيدي بوسعيد.. وبمنطقة صخرية مُهملة تقع في قمة الجبل، وتُطل على الشاطئ المتلألئ، وعلى مرفأ لليخوت وقوارب الصيد.. نفضت الغبار المتراكم على صخرة صغيرة وجلست عليها.. تدثرت بمعطفي أطلب الدفء وسط الرياح الليلية الباردة.. وفتحت جهاز اللاب توب.. وأخذتُ نفساً عميقاً.. وبدأت أكتب:

* * * *

كيف يَقدِر البحر على إشعال حنيننا المخبوء تحت ركام أيامنا الباردة.. كيف يَقدِر على إنعاش نبضاتنا المتداعية تحت عجلات حياتنا الماديّة التي تمارس سحقها صباح مساء!

لماذا يهدر البحر رغبتنا في العودة إلى اكتظاظ المدن.. تلك التي ما فتئت تنزف ما بقي من وجداننا.. حتى كاد يتلاشى.

ما كل هذا الدفء الحميمي الآتي مع نسائم الريح الباردة فوق قمة سيدي بوسعيد، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأنا أجلس وحيداً على حجر متناهٍ في القِدم، عاش حضارة القَرطاجيين الفينيق، وحارب مع الرومان، وتلا شهادة التوحيد معَ العرب الأوائل.

لا أدري هل أبدو غريب الأطوار عندما أجد مُتعة استثنائية في الجلوس وحيداً، والتجوّل وحيداً، والسفر وحيداً.. وحين أتناول طعامي وحيداً في زاوية مُعتمة بمطعم هادئ يخلو من الرواد.

أيام كنت في الجامعة، وقبل أن توغل مشاغل الحياة في تحطيم خَلَوَاتنا، لم أكن

أُمضي بضعة أيام دون أن أذهب بعد منتصف الليل إلى مخيّمنا الصحراوي، الذي يرقد في منطقة هادئة ومظلمة لا تكاد ترى فيها ضوء، ولا تسمع فيها صوت إنسان، وتبعد ثلاثين كيلاً عن الرياض.. أجلس هناك ساعة أو ساعتين، أشرب الشاي، وأقرأ كتاباً تحت ضوء الفانوس الخافت، ثم أرفع ثوبي وأشده على خصري، وأتجول على قدميّ قرب التلال القريبة، أتأمل نجوم السماء، أدندن حيناً، وأصمت أحياناً، وأسرح في ظلام اللَيل المُمتد دون حدود.

وفي رحلة بريّة شاركت بها عندما كنت في المرحلة الثانوية، اقترب الأستاذ مني وقال باسماً: قتلك الحب يا نواف، لا يسرح كثيراً ويميل إلى الخلوة والتجول وحيداً إلا مُحب.. طبعاً مُفاجأتي بما قال لم تمنعني من إنكار ظنونه، ليس فقط لأنه وخز تربيتي المُحافظة، بل لأنني حقاً لم أكن أعيش هكذا حالة.. فهل بات الملجأ الوحيد من صخب الحياة مثار شك وريبة!

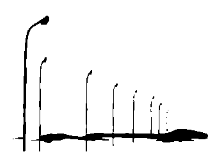
يا كل الضياء الممتد حتى الأفق على ضِفاف المتوسط، امنحني الرضا، والنور، والعِرفان.

سيدي بوسعيد - تونس ١ مايو ٢٠٠٩م

* * * *

حين قررت العودة كانت الساعة تُقارب الواحدة والنصف ليلاً، تجولت لبعض الوقت في الطرقات الفرعية المنزوية، وملأت رئتي من هواء الجبل النقي، ثم ركبت سيارة أجرة كانت متوقفة بمحاذاة ميدان صغير بالقرب من مدخل سيدي بوسعيد.. ومع هدوء الليل وعذوبة الجو، أرخيت المقعد قليلاً، وأغمضت عيني، ورحت أنصت باستمتاع لمقطوعة موسيقية هادئة كانت تنبعث من المذياع.. وبعد قليل من بداية الطريق، وكنت لحظتها في قمة التحليق والاستمتاع بجمال صوت البيانو، قلب سائق السيارة موجة المِذياع فجأة،

وجعلها على برنامجٍ ديني محلي لا أكاد أفهم شيئاً من لهجة المتحدثين به، ثم التفت إلي متحمساً وقال: باهي؟.. بصراحة (حسيت أنه أحرجني مع الله)، ولم أشأ أن أخيب ظنونه.. فقلت له بعد أن رمقته بشزر: باهي ياعمي باهي.



شيءٌ من سِجالاتِ الثقافة في تونس



3

تضمن يومي الثالث عـدداً من اللقاءات التي تستدعي بعض الحديث عن المشهد الثقافي التونسي.. ولأن هذا الحديث قد يستهلك بعض المساحة. أود أن أخصص هذه الفقرة للإشارة بشكل موجز إلى شيء من تباينات المشهد الثقافي التونسي وسجالاته وأبرز شخصياته.. فيما أخصص الفقرة التالية للحديث عن تفاصيل جولتي في يومي الثالث.

* * * *

يبدو واضحاً لمن يتابع المشهد الثقافي والأكاديمي في تونس أن ثمة تقسيمات حادة تسود هذا المشهد، بين نخبة علمانية تدير غالب المراكز البحثية والمواقع الأكاديمية في تونس، ونخبة أخرى يمكن اعتبارها متصالحة مع هويتها وتراثها.. وكان مما لفت انتباهي أن تمايز النُخب في تونس وتصنيفها يختلف عما هو سائد في العالم العربي. ففي عدد من دول العالم العربي يتم تصنيف النخب الثقافية عادة إلى (علمانيين وإسلاميين) أو (ليبراليين وإسلاميين)، أي أنه تصنيف على أساس أيديولوجي أو سياسي، دون أن ينفي هذا عن العلمانيين أو الليبراليين صفة الإيمان

بالإسلام بحسب تفسيراتهم وقراءاتهم الخاصة.. أما في تونس فالتصنيف الذي سمعته عدة مرات هو يميز بين نخبة لائكية (لا دينية) ونخبة مؤمنة!. أي أنه تصنيف على أساس الإيمان بين (لاديني ومؤمن)، ودون أن يعني هذا التصنيف أن الطرف (المؤمن) هو (إسلامي) بالمعنى الأيديولوجي السائد اليوم.. أيضاً ثمة من يقوم بتصنيف الوسط الثقافي في تونس بين نخبة متخاصمة مع الهوية والتراث، ونخبة متصالحة معها.

والنخبة العلمانية ـ المتخاصمة مع التراث ـ في تونس تتضمن أسماءً ثقافية لها حضورها في الوسط الثقافي العربي، في مقدمتهم الدكتور عبدالمجيد الشرفي الذي كان يرأس مركز البحوث في الجامعة التونسية ـ تُسمى جامعة (منّوبة) نسبة للمنطقة التي توجد بها مقرات الجامعة ـ قبل أن يتقاعد منذ سنوات، ويُعد الشرفي أحد أساتذة الجيل في تونس، حيث أشرف على المئات من رسائل الدكتوراه، ويدين له الكثير من المثقفين ـ حتى من المُختلفين معه ـ بأستاذيته وريادته في تعليم الفلسفة والفكر والإسلامي.. وللشرفي العديد من المؤلفات، من أهمها كتاب (الفكر الإسلامي في الرد على النصارى حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) الذي صدر عام ١٩٨٦م، وهو في الأصل رسالته للدكتوراه التي قدمها للجامعة التونسية في العام ١٩٨٢م، وكانت تحت إشراف د.محمد الطالبي. وكتاب (الإسلام والحداثة) الذي صدر عام ١٩٩٠م، و(تحديث الفكر الإسلامي) الذي صدر عام ١٩٩٨م، و(الإسلام بين الرسالة والتاريخ) الذي صدر عام ٢٠٠١م، والعديد من الكتب الأخرى.

ويؤكد د.الشرفي بشكل متكرر أن منهجه البحثي يقوم على اعتبار: (أن في الإسلام ثلاثة مستويات يتعيّن عدم الخلط بينها. الأول: هو مستوى النص التأسيسي الذي هو ركيزة الدين ومرجع وحدته ـ أي القرآن وربما ما يراه صحيحاً من السُنة.. والثاني: مستوى تأويلات هذا النص وتطبيقاته التاريخية.. أما الثالث: فمستوى الإيمان الشخصي المستعصي على التحديد والحصر والتنميط). ثم يؤكد الشرفي أن: (كل دراساته وأبحاثه تهتم فقط بالمستوى الثاني من هذه المستويات،

لأنه مستوىً بشري نسبي متعدد بتعدد الأمكنة واختلاف الأزمنة والبيئات والظروف وغيرها من العوامل).

طبعاً وإن بدا هذا الكلام منطقياً من حيث التأسيس، إلا أن غالب العنف النقدي الذي نراه اليوم في كتب غلاة العلمانيين، بشكل يطال غالب قطعيات الدين وثوابته، ويكاد يفرّغ الإسلام من أصوله، يأتي دائماً من (مدخل التأويل)، الذي يعتمد على استخدام نظريات حديثة أنتجتها المنظومة البحثية الغربية، وتقوم على تعدد أنماط قراءة النصوص ضمن حقول اللغويات والألسنيات وعلوم النص، فنتج عن ذلك تأسيسٌ لنظرياتٍ عديدةٍ تتباين في أنماط تعاطيها مع النصوص، كالبنيوية والتفكيكية والسيميائيات والهرمونيطيقيا وسواها.. والحديث في هذا المجال واسع جداً ولا أريد الاستطراد فيه.

ولأن الدكتور عبدالمجيد الشرفي يعتمد على (مستوى التأويل) الذي يراه (مستوىً بشري نسبي متعدد بتعدد الأمكنة واختلاف الأزمنة)، هو يشرف اليوم على سلسلة الدراسات التي صدرت مؤخراً تحت عنوان (الإسلام واحد ومتعدد)، وصدر عنها حتى الآن ما يقارب العشرين كتاباً، منها: (إسلام الفقهاء)، و(إسلام عصور الانحطاط)، و(إسلام المتصوفة)، و(الإسلام السني)، و(الإسلام الشيعي)، و(إسلام المجددين)، و(إسلام المتكلمين)، و(إسلام الفلاسفة)، و(إسلام الخوارج)، و(إسلام الأكراد)، و(الإسلام الشعبي)، و(الإسلام الحركي)، و(الإسلام الآسيوي)، و(الإسلام الأسود)، و(الإسلام العربي)، وسواها من عناوين.

وتصدر هذه السلسلة بدعم وتمويل من (رابطة العقلانيين العرب) التي تأسست في شهر نوفمبر من العام ٢٠٠٧م، وتتخذ من باريس مقراً لها. حيث تضم هذه الرابطة مجموعة من المفكرين والباحثين العرب، الذين يتبنون موقفاً علمانياً حاداً يحمل كثيراً من التطرف تجاه التيارات الإسلامية والفكر الإسلامي الحديث، حتى إن بعضهم لا يرى فرقاً بين يوسف القرضاوي وأسامة بن لادن، ولا بين طارق رمضان وأيمن الظواهري!. وتضم رابطة العقلانيين العرب في صفوفها العديد من الأسماء

المعروفة في الأوساط البحثية، كعزيز العظمة، وجورج طرابيشي، وعبدالمجيد الشرفي، والعفيف الأخضر، ومحمد الهوني، ورجاء بن سلامة، وجلال صادق العظم، ونصر حامد أبو زيد، وسيد القمني، ومحمد الحداد، وعبدالرزاق عيد، وسواهم.. ولهم موقع اسمه (الأوان) على شبكة الإنترنت.

وإذا ما عدت للحديث عن النخبة العلمانية في تونس، فهي إضافة إلى رمزية اسم عبدالمجيد الشرفي، تتضمن العديد من الشخصيات النشطة في المجال البحثي. كالدكتور وحيد السعفي الذي يُعد أحد أبرز تلامذة الشرفي، وتولى السعفي رئاسة مركز البحوث في الجامعة التونسية بعد تقاعد الشرفي، وقد أصدر عدة كتب منها (العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن) عام ٢٠٠٦م، و(في قراءة الخطاب الديني) عام ٢٠٠٨م، وسواهما.

وكذلك الدكتور محمد الحداد، الذي وإن كان على اتفاق مع المنظومة الفكرية للشرفي، إلا أن بينهما ـ فيما يبدو ـ خصومة فكرية.. وقد أصدر الحداد العديد من الكتب، من أهمها: (حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي) عام ٢٠٠٢م، و(مواقف من أجل التنوير) عام ٢٠٠٥م، و(البركان الهائل.. في آليات الاجتهاد الإصلاحي وحدوده) عام ٢٠٠٦م، و(الإسلام: نزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح) عام ٢٠٠٦م، و(ديانة الضمير الفردي) عام ٢٠٠٧م.. وبسبب الموقف العلماني الصارم للحداد، ولكونه من مؤسسي رابطة العقلانيين العرب، فقد دُهشت حين حكى لي أحد الأصدقاء أنه كان قبل عام بصحبة د.محمد الحداد في زيارة إلى مكة لتأدية مناسك الحج، وأن الحداد كان حَريصاً على أداء المناسك بكل دقة، بل كان لا يقبل الترخّص في بعض المسائل الفقهية أثناء الحج، ويصر على الالتزام بالقول الأحوط!. وربما بدا لي في هذا الفعل مفارقة غير مألوفة، حين نجد عند ذات الشخص (علمانية جذرية) مفصولة تماماً عن بعض الممارسات التعبدية الفردية!.

أيضاً يمكن أن أذكر عدداً من الأسماء التي تُعد من أبرز النُخب العلمانية في تونس، كالدكتور حمادي بن جاب الله، الذي يُعد من كبار الفلاسفة اللائكيين في تونس، رغم أن أباه كان مُعلماً للقرآن. لذلك يحفظ د.حمادي القرآن باستحضار

جيد، وهو كذلك مُطّلع بشكل واسع على التراث الإسلامي.. وكذلك العفيف الأخضر، الكاتب المعروف بهجومه الشرس على كل المظاهر الإسلامية، ومن أبرز الداعين إلى تجفيف منابع التديّن. ورغم أن العفيف الأخضر يكتب بغزارة، ونشر آلاف المقالات، إلا أنه لم يُصدر سوى كتب محدودة، من أهمها كتاب (الموقف من الدين) الذي صدر عن دار الطليعة في العام ١٩٧٣م. وكان الشيخ راشد الغنوشي - زعيم حزب النهضة الإسلامي - قد ألمح في أحد مقالاته إلى أن العفيف الأخضر هو المؤلف الحقيقي لكتاب (المجهول في حياة الرسول) الذي صدر في العام ٢٠٠٥م، وحمل اسماً مستعاراً هو (الدكتور المقريزي)، حيث تضمن هذا الكتاب كثيراً من التشكيك والإساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. إلا أن العفيف الأخضر نفى ذلك، واتهم الغنوشي بالتحريض على قتله. ويقيم العفيف الأخضر في باريس منذ العام ١٩٧٩م، وهو في وضع صحي حرج منذ بضع سنوات.

وكذلك الدكتورة ألفة يوسف، التي نشأت هي الأخرى في أسرة محافظة، وكانت تمثل صوتاً معتدلاً ومحافظاً في الوسط الثقافي التونسي، ولكنها شهدت قبل أعوام قليلة تحولاً حاداً في الموقف. وقد دشنت هذه التحول بكتابها الشهير (حيرة مسلمة) الذي صدر في العام ٢٠٠٨م وأثار جدلاً واسعاً، وتقول فيه أن الإسلام الذي نعرفه اليوم هو من اختراع الفقهاء، وتدعو فيه للسماح بالمثلية الجنسية، وتشن هجوماً عنيفاً على أحكام الإسلام المتعلقة بالمرأة.

وأيضاً الدكتورة آمال قرامي التي عُرفت بمواقفها الحادة والتقويضية لكثير من أحكام الإسلام، وخصوصاً تلك المُتعلقة بالمرأة، ودعوتها لتطبيع المثلية الجنسية في المجتمع. وقد عبّرت عن كثير من هذه الأفكار في كتابها الضخم (الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية.. دراسة جندرية) الذي صدر عام ٢٠٠٧م في قرابة الألف صفحة عن دار المدى الإسلامي، وأساس هذا الكتاب هو أطروحتها للدكتوراه التي أُعِدت تحت إشراف الدكتور عبدالمجيد الشرفي.

وكذلك يمكن الإشارة في هذا الإطار إلى الدكتورة رجاء بن سلامة، العضو في رابطة العقلانيين العرب، والمُحاضرة في الجامعة التونسية، والتي أصدرت عدداً من

الكتب، من أهمها: (بنيان الفحولة) عام ٢٠٠٥م، و(نقد الثوابت) عام ٢٠٠٥م، و(في نقد إنسان الجموع) عام ٢٠٠٨م، وسواهم. وهي أيضاً من المتخصصات بالدراسات الجندرية، وكتبت كثيراً من النقد لوضع المرأة في الإسلام.

وأيضاً يمكن الإشارة إلى الدكتور محمد المزوغي المتخصص في الفلسفة الإسلامية، والمقيم في إيطاليا منذ أواخر الثمانينيات، وقد أصدر ثلاثة كتب، هي: (نيتشه، هايدغر، فوكو. تفكيك ونقد) عام ٢٠٠٤م و(عمانويل كانط. الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص) عام ٢٠٠٧م، و(العقل بين الوحي والتاريخ) ٢٠٠٧م. ويعتبر المزوغي من تيار المثقفين اللائكيين في تونس، حيث لا يتردد في التصريح بمواقفه الرافضة للأديان، والناقضة لكل المسلمات الدينية، فيقول مثلاً في كتابه (عمانويل كانط.. الدين في حدود العقل) والصادر عن دار الساقي: (طبقاً لمبادئ المنطق والعقل النظري والعملي والحس الإنساني السليم، إن النبوة باطلة ولا حقيقة لها)، لذا هو يعتبر أن (الوحي) لا يعدو أن يكون إما خيالاً أو من صُنع الأتباع، إذ كيف يمكن إثبات الوحي إذا كان الموحي ذاته (الله عزوجل) غير موجود!!. وهكذا يواصل المزوغي باسترسال سطحي إطلاق نتائجه الكبرى دون أي برهنة أو حتى محاولة التبرير لهذه النتائج!، التي باتت اليوم مُبتذلة ومرفوضة حتى عند أكثر الدوائر البحثية العلمانية في الغرب، بعد أن تجاوز العالم مشكلة الإلحاد التي راجت زمناً في أواسط القرن العشرين. ولم يعد يُنظر اليوم إلى (الإلحاد) إلا باعتباره (موضة قديمة) تستدعي السُخرية!.

وبالطبع ثمة أسماء عديدة ناشطة في المجال البحثي ضمن النخبة العلمانية التونسية، إضافة إلى عشرات الصحفيين والسياسيين والحقوقيين الذين يتبنون موقفاً علمانياً جذرياً ورافضاً لأي مظهر من مظاهر التديّن في المجتمع.. حتى أن العديد منهم تقدم إلى الدولة التونسية بطلب تأسيس (جمعية اللائكيين العرب). إلا أن الموافقة بتأسيسها لم تصدر بعد. وربما هي أول مطالبة بتكوين جمعية تضم اللادينيين في العالم العربي.

المشكلة أن هذه النخبة رغم حديثها الدائم عن الاستنارة والحداثة والحرية

البحثية. إلا أن بعض رموزها يمارسون دوراً إقصائياً تجاه المفكرين والباحثين المعتزين بهويتهم وتراثهم.. وقد حدثني اثنان من الأكاديميين المرموقين عن عدد من المُمارسات الإقصائية التي تجري في المراكز البحثية والجامعة التونسية، وكيف يتم تأخير اعتماد الدرجات العلمية والترقيات الوظيفية لمن هم خارج إطار هذه النُخبة العلمانية.

* * * *

ومقابل هذه النُخبة العلمانية في تونس، ثمة نُخبة ثقافية وأكاديمية لها حضورها الواسع أيضاً، هي متصالحة مع تراثها وهويتها، ولا تجد تعارضاً بين الإسلام والحداثة، ودخل بعض شخصياتها في سجال ـ وربما صراع ـ مع النخبة العلمانية التي تُهيمن على المفاصل الثقافية والبحثية في تونس.

وفي مقدمة هذه الشخصيات الدكتور محمد الطالبي، الذي يُعد أستاذاً لجيل من المثقفين والأكاديميين في تونس، ومن مؤسسي الجامعة التونسية عام ١٩٥٨م، وهو الآن في الثامنة والثمانين من عمره ـ من مواليد عام ١٩٢١م ـ وقد نال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة السوربون بباريس، وأصدر العديد من الكتب باللغتين العربية والفرنسية، من أهمها: (الإسلام حرية وحوار) الذي صدر بالفرنسية عام ١٩٧٢م، وتُرجم إلى العربية عام ١٩٩٩م، و(عيال الله) وصدر عام ١٩٩٢م، و(مرافعة من أجل إسلام معاصر) عام ١٩٩٨م، و(كونية القرآن) عام ٢٠٠٢م، و(ليطمئن قلبي) عام ٢٠٠٧م، و(أفكار مسلم معاصر) وهو الجزء الثاني من كتاب ليطمئن قلبي وصدر عام ٢٠٠٨م، إضافة إلى عدد من الكتب والبحوث في التاريخ الأفريقي.

وربما كان كتاب (ليطمئن قلبي) الذي صدر عن دار (سراس) التونسية في العام ٢٠٠٧م من أكثر الكتب التي أثارت جدلاً واسعاً في الوسط الثقافي التونسي والعربي. وذلك لأن الطالبي شن في كتابه هجوماً عنيفاً على المفكرين العلمانيين

الذين وصفهم بـ (الانسلاخسلامية)، ويقصد بهذا الاصطلاح من يعتبرهم قد انسلخوا من هويتهم الإسلامية، وباتوا يهدفون إلى تقويض الإسلام تحت مصطلحات التأويل والقراءات الجديدة للنص وسوى ذلك.. وقد خصص الطالبي قُرابة الخمسين صفحة من كتابه للحديث عن الدكتور عبدالمجيد الشرفي ـ ويُعد أحد طلابه، حيث أشرف الطالبي على رسالة الشرفي للدكتوراه، الذي اعتبره أحد رواد (الانسلاخسلامية)، واتهمه بأنه يهدف إلى نزع القداسة عن القرآن، وجعل الإسلام مجرد هوية تاريخية، وأنه يريد أن يكون (نيتشة) العرب، مستلهماً النظريات النيتشوية في موت الإله والإنسان المتجاوز للحدود، بل ووصف الشرفي بأوصاف رأى البعض أنها خارجة عن إطار التقييم العلمي، كاتهامه بالخداع والتمويه والكذب والنفاق والمداهنة، وسوى ذلك من أوصاف تدخل في إطار الشتائم.

من يقرأ كتاب الطالبي يلمس في ثناياه إيماناً عميقاً، وعاطفة طاغية أرادت أن تكشف كثيراً من الممارسات التقويضية للإسلام، التي تتم تحت لافتات البحث الأكاديمي والحرية العلمية.. وهذه الممارسات التي تحدث عنها الطالبي، هي أمر واقع ملموس، خصوصاً في الأوساط الأكاديمية والبحثية في تونس. ولكنه أيضاً مبحث شديد الحساسية، لأنه يتداخل مع جوانب غيبية لا يمكن الكشف عنها والتأكد من صحتها، كالحديث عن (النيات) التي لا يعرفها إلا الله وحده.. وهو ما أخذه على الطالبي حتى بعض المفكرين الإسلاميين في تونس، من أمثال د.احميده النيفر الأستاذ بجامعة الزيتونة، الذي كتب مقالاً طويلاً تحدث فيه عن كتاب الطالبي، ورأى فيه إيغالاً في الحديث عن النوايا، وأن ذلك غير سائغ في البحث العلمي، وإن كان د.النيفر قد تفهم في موضع آخر من مقاله كلام الطالبي، حين اعتبره في سياق (رد فعل) على العنف النقدي للإسلام الذي يصدر عن بعض الباحثين التونسيين.

أما في الجانب العلماني، فقد توالت الردود على كتاب الطالبي، فمنهم من اعتبره نموذجاً إضافياً للرِدة الثقافية التي أصابت من قبل خالد محمد خالد ومحمد عمارة ومصطفى محمود وسواهم ممن تحول من الماركسية إلى الإسلامية، ومنهم

من اعتبره مجرد (بيان أخير) نازعاً منه صفة العلمية، وأنه مجرد حالة توبة دينية قبل الموت. أما الدكتور عبدالمجيد الشرفي فقد رد بمقال طويل بعنوان (الحق أحق أن يتبع)، ولمز فيه الطالبي بأن أعراض الشيخوخة قد أصابته.. وبالطبع تزعم موقع (الأوان) التابع لرابطة العقلانيين العرب نشر عدد من الردود على كتاب الطالبي.

وإذا أردنا الحديث عن النخبة الثقافية التونسية المتصالحة مع هويتها، فلابد ابتداءً من ذكر أستاذ الفلسفة في الجامعة التونسية الدكتور أبو يعرب المرزوقي، الذي يُعد اليوم من أبرز المفكرين الإسلاميين المشتغلين بحقلي الفلسفة والتراث الإسلامي، وممن يملكون اطلاعاً مذهلاً على مدارس الفلسفة وتاريخها وأفكارها وتحولاتها ومنظّريها، إضافة لاطلاعه الواسع على التراث الإسلامي بفِرقه ومذاهبه ومدارسه الكلامية، واعتنائه الشديد بتراث ابن تيمية.. وللمرزوقي عشرات الكتب والدراسات والبحوث والمقالات المطوّلة. ومن أهم كتبه: (الاجتماع النظري الخلدوني والتاريخ العربي المعاصر) عام ١٩٨٣م، و(إصلاح العقل في الفلسفة العربية: من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى إسمية ابن تيمية وابن خلدون) عام ١٩٩٤م، و(آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة) عام ١٩٩٩م، و(تجليات الفلسفة العربية) عام ٢٠٠١م، و(مصادر الفلسفة) عام ٢٠٠٥م، و(الثورة القرآنية وأزمة التعليم الديني) عام ٢٠٠٨م، والعديد من الكتب الأخرى.

ويعد الدكتور أبو يعرب المرزوقي من أبرز الناشطين في مجال التأليف والكتابة في الوسط الثقافي التونسي، وقد دخل في سجالات عديدة مع النخبة العلمانية التونسية والعربية، وكان ممن ردوا على مقال عبدالمجيد الشرفي (الحق أحق أن يُتبع) الذي كتبه رداً على الطالبي، حيث كتب د.المرزوقي مقالاً طويلاً بعنوان (نعم: الحق أحق أن يُتبع)، وتضمن دفاعاً عن مواقف الطالبي ورداً تفصيلياً على كلام الشرفي.. وأيضاً دخل في سجال مطول مع د.محمد المزوغي، الذي وصف أبو يعرب بأنه من (دعاة الوهابية) بسبب إشادته بنموذج ابن تيمية.. بل وللدكتور أبو يعرب المرزوقي تاريخ يمتد لعقود من الزمن في تبني الدفاع عن الهوية الإسلامية بمواجهة النخبة العلمانية التونسية. وربما كان يقف وحيداً على أرض هذه المعركة

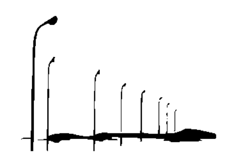
الثقافية في ثمانينيات القرن العشرين، التي كان فيها الدفاع عن الهوية والتراث موضع سخرية في الأوساط الثقافية التونسية.

أيضاً يمكن أن نذكر من ضمن النخبة الثقافية المتصالحة مع الهوية في تونس، الدكتور احميده النيفر الأستاذ بجامعة الزيتونة، وهو من الشخصيات البارزة في الحركة الإسلامية التونسية، ومن مجموعة (الإسلاميين التقدميين) التي تشكلت في بداية الثمانينيات، وقد درس الشريعة في الأزهر، وأكمل دراساته العليا في الجامعة الزيتونية، وقد أصدر العديد من الكتب، من أهمها: (الإنسان والقرآن وجها لوجه: التفاسير القرآنية المعاصرة) عام ٢٠٠٠م، و(النص الديني والتراث الإسلامي) عام ٢٠٠٤م.. وأيضاً الأستاذ صلاح الدين الجورشي رفيق درب د.احميده النيفر في تجربته الإسلامية وفي تأسيس مجموعة (الإسلاميين التقدميين)، ويُعد الجورشي من المثقفين والكتاب المعروفين في تونس والعالم العربي، وهو رئيس منتدى الجاحظ الثقافي، ونائب رئيس الرابطة التونسية لحقوق الإنسان.. وكذلك الدكتور محمد بوهلال الأستاذ في جامعة سوسة، الذي يُعد من أبرز المشتغلين بالفلسفة بتونس، وقد أصدر جزءاً من رسالته للدكتوراه بكتاب عنوانه (الغيب والشهادة في فكر الغزالي) عام ٢٠٠٣م. وله أيضاً كتاب (إسلام المتكلمين) من سلسلة (إسلام واحد ومتعدد) التي يشرف عليها د.عبدالمجيد الشرفي.. ونذكر أيضاً الدكتور محمد الرحموني الأستاذ في الجامعة التونسية، الذي أصدر عدداً من الكتب والدراسات، من أهمها: كتاب (الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة) عام ٢٠٠٢م، و(الدين والأيديولوجيا / جدلية الديني والسياسي في الإسلام وفي الماركسية) عام ٢٠٠٥م.

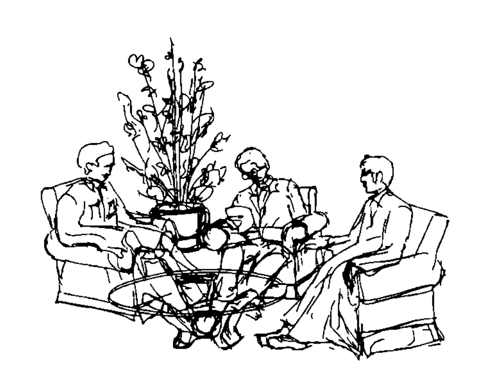
وربما من أهم الشخصيات في هذا الإطار الدكتور عبدالسلام المسدي الذي يُعد من رجالات الدولة في تونس، حيث شغل منصبي وزير الثقافة ووزير التعليم العالي في فترتين متعاقبتين. وفي نفس الوقت يُعد هو من أبرز المثقفين في تونس، وأصدر عشرات الكتب والدراسات والبحوث، من أهمها: كتاب (أهم قضايا التفكير اللغوي عند العرب إلى ابن خلدون) عام ١٩٧٩م، وكتاباه (مراجع اللسانيات)

و(مراجع النقد الحديث) الصادران عام ١٩٨٩م، و(العولمة والعولمة المضادة) عام ١٩٩٨م، وسواها.. وربما يُدخل البعض في هذا الإطار المؤرخ والباحث المعروف الدكتور هشام جعيط، صاحب عدد من الكتب الرصينة التي حظيت بقدر واسع من الرواج في الأوساط الثقافية العربية، من مثل: (أوروبا والإسلام: صدام الثّقافة والحداثة) عام ١٩٧٨م، و(الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية) عام ١٩٨٦م، و(الفتنة: جدليّة الدّين والسّياسة في الإسلام المبكّر) عام ١٩٨٩م، و(أزمة الثقافة الإسلامية) عام ٢٠٠١م، إضافة إلى كتابين أصدرهما في السيرة النبوية.. ويدخل أيضاً في هذا السياق العديد من الشخصيات الثقافية والأكاديمية في تونس.

كما لا يمكن أن ننسى في هذا الإطار بعض الشخصيات التونسية الناشطة في المجال الفكري، وتقيم خارج تونس لأسباب سياسية، وعلى رأسهم راشد الغنوشي زعيم حزب النهضة، الذي أصدر عدداً من الكتب والدراسات، ربما من أهمها كتاب (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) الذي صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في العام ١٩٩٣م، وكتاب (مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني) عام ١٩٩٩م، وكتاب (القدر عند ابن تيمية) عام ١٩٩٩م، وكتاب (الحركة الإسلامية ومسألة التغيير) عام ٢٠٠٢م، وسواهم.. وأيضاً الدكتور عبدالمجيد النجار، وهو من قيادات حزب النهضة، ويشغل منصب الأمين العام المساعد للمجلس الأوروبي للإفتاء الذي يرأسه الشيخ يوسف القرضاوي، وقد صدرت له عدة كتب، من أهمها (خلافة الإنسان بين الوحي والعقل) عام ١٩٨٧م، و(دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين) عام ١٩٩٢م، و(الشهود الحضاري للأمة الإسلامية / ثلاثة مجلدات) عام ١٩٩٩م. وسواها.



عن منتدى الجاحظ..
وبدايات الحركة الإسلامية



4

عندما تستيقظ صباحاً.. وتزيل الأشرعة السميكة المُسدلة على الواجهة الزجاجية، لتدع أشعة الشمس الحنونة تُشعل رغبتك في العيش.. ثم تلتقط بعض البسكويت لتقضمه وأنت تحتسي شايك الصباحي وتتلو أذكار الصباح من شرفة غرفتك التي تطل فيها على حوض سباحة صافٍ وكبير، تليه غابة كثيفة الاخضرار، تليها زرقة البحر الممتد حتى النهايات القَصيّة.. ونسائم الهواء الربيعي العليل تلامس قسمات وجهك، وتفعل فعلها في بث الحياة.. عندئذ سيغدو صباحك مُحملاً بأطنانٍ من التفاؤل والسكينة التي تكفي لإمدادك بالرضا أيّاماً طويلة.

كعادتي في العاشرة صباحاً توجهت إلى معرض الكتاب، لأقضي جولتي الأخيرة في ثنايا هذا المعرض.. بدأت أولاً بزيارة دور النشر التي لم أتفحص كتبها بعد، إضافة لشراء بعض الكتب التي كنت قد أجّلت شراءها حتى اليوم الأخير.. لفتت انتباهي دار نشر مصرية قامت بنشر إصدارات مميزة تخاطب الناشئة بلغة مبسطة ورسومات توضيحية حول بعض الموضوعات الحقوقية والسياسية، مثلاً هناك كتاب عن الديمقراطية، وآخر عن النظام السياسي في مصر، وثالث عن لائحة حقوق الطفل، وهكذا.. وفي منتصف جولتي جلست لبعض الوقت مع الأستاذ خالد زغلول في جناح دار (مصر المحروسة) التي يملكها، بعد أن عزمني على

(كباية) شاي مصري أصيل لا يمكن أن أرتكب حماقة رفضه.. وبعد ذلك التقيت اثنين من الباحثين كنت قد اتفقت معهما على اللقاء في المعرض.

أثناء جولتي كنت أفتش عن الجزء الثاني من كتاب الدكتور محمد الطالبي (ليطمئن قلبي) الذي أثار ـ كما ذكرت ـ ضجة كبيرة في الوسط الثقافي التونسي والعربي.. وحين عثرت عليه بعد لأي، فوجئت بأن الجزء الثاني من الكتاب الذي خرج بعنوان (أفكار مسلم معاصر)، قد صدر عن دار الفينيق المغربيّة فقط باللغة الفرنسية، رغم أن الجزء الأول كان قد صدر فقط باللغة العربية!.. وحين سألت أحد الأكاديميين الذين لهم علاقة جيدة بالطالبي، قال لي أنه دُهش أيضاً عندما علِم بذلك. وأنه حين سأل الطالبي أجابه بأن الجزء الثاني يتضمن أفكاراً ربما لا يستطيع فهمها على حقيقتها من لا يجيد التحدث سوى بالعربية!!.

وبعد أن لملمت آخر اختياراتي من هنا وهناك، توجهت إلى المكان الذي اتفقت مع الأستاذ محمد القوماني على أن نلتقي به في الساعة الثانية ظهراً.. حيث كنت على موعد لزيارة منتدى الجاحظ الثقافي الذي يدير القوماني عمله التنفيذي تحت مسمى (الكاتب العام لمنتدى الجاحظ).. ويرأسه الأستاذ صلاح الدين الجورشي.

وصلاح الدين الجورشي ود.احميده النيفر يُعدان من الشخصيات المهمة في الحركة الإسلامية التونسية، التي تأسست في بداية السبعينيات على يد راشد الغنوشي وعبدالفتاح مورو، وكانت في بدايتها تحمل اسم (الجماعة الإسلامية)، إلا أنها بعد إعلان الحزب الدستوري الحاكم في تونس عن مشروع التعددية السياسية سنة ١٩٨١م، بادر أعضاء الجماعة الإسلامية إلى عقد مؤتمر عام، أعلنوا في ختامه عن حل الجماعة، وتأسيس (حركة الاتجاه الإسلامي)، وانُتخب راشد الغنوشي رئيساً لها، وعبدالفتاح مورو أمينها العام.. وتقدمت الحركة إلى وزارة الداخلية بطلب اعتمادها رسمياً، إلا أنها لم تتلق أي جواب.. وبعد ذلك بشهور تم اعتقال راشد الغنوشي بتهمة الانتماء إلى جمعية غير مشروعة، وحُكم عليه بالسجن عشرة أعوام، إلا أنه خرج من السجن في العام ١٩٨٤م بعفو رئاسي. ولكنه تعرض للسجن مرة أخرى مع عدد من قيادات الحركة في شهر أغسطس من العام ١٩٨٧م،

وحُكم على الغنوشي بالسجن المؤبد بتهمة تهديد أمن الدولة، فيما حُكم على سبعة من رفاقه بالإعدام، وتم تنفيذ حكم الإعدام بعد ذلك فقط في اثنين منهم.

وبعد شهرين من اعتقال الغنوشي (في ٧ نوفمبر من العام نفسه) قام وزير الداخلية زين العابدين بن علي بالإطاحة بالرئيس أبورقيبة وتولي الرئاسة، ورحبت حركة الاتجاه الإسلامي بهذا التغيير في السلطة، وشاركت في التوقيع على وثيقة (الميثاق الوطني) التي تُنظم العمل السياسي في تونس. وفي مايو من العام ١٩٨٨م ـ أي بعد عشرة أشهر من الاعتقال ـ خرج الغنوشي من السجن بعفو رئاسي بمناسبة عيد الفطر. بعد ذلك شاركت الحركة بلوائح مستقلة في الانتخابات التشريعية التي عُقدت في إبريل من العام ١٩٨٩م. وبعد الانتخابات مباشرة قررت الحركة أن تقوم بتغيير اسمها والتحوّل إلى حزب سياسي تحت مسمى (حزب النهضة)، وذلك انسجاماً مع قانون الأحزاب الذي يرفض تأسيس حزب على أساس ديني. ولكن هذا الحزب لم يحظ أيضاً بالموافقة الرسمية، فقرر الغنوشي مغادرة تونس، واستطاع بالفعل التسلل إلى الجزائر في مايو ١٩٨٩م، وأقام بها قرابة العامين، ومنها اتجه إلى السودان، وأقام بها بضعة أشهر، ثم حصل على حق اللجوء السياسي في بريطانيا، وهو يقيم بها حتى اليوم.

وفي منتصف العام ١٩٨٩م تصاعدت حدة المواجهات مع حزب النهضة، واتُهِم الحزب بارتكاب أعمال عنف، وبلغت الأزمة مداها في مايو من العام ١٩٩١م، حين أعلنت السلطة عن إبطال مؤامرة لقلب نظام الحكم واغتيال الرئيس بن علي. إثر ذلك تم اعتقال أكثر من ثمانية آلاف من كوادر الحركة، وحوكم عدد من قياداتها بمحاكم عسكرية، وبقيت السجون التونسية ممتلئة بمعتقلي حزب النهضة لسنين طويلة، حتى تم الإفراج عن آخر دفعة منهم قبل بضع سنين فقط.. إلا أن اسم (حزب النهضة) ظل دائماً في قائمة الحظر، وبقي مجرد الانتساب إلى الحزب تهمة تعرِّض أصحابها لتبعات أمنية.

وبعد هذا الاستعراض الموجز لتاريخ الحركة الإسلامية في تونس، أود الإشارة إلى أن ثمة مجموعة انفصلت عن هذه الحركة عام ١٩٨١م، في ذات الفترة التي

جرى فيها تغيير اسم (الجماعة الإسلامية) إلى (حركة الاتجاه الإسلامي). وكان على رأس هذه المجموعة صلاح الدين الجورشي واحميده النيفر، اللذان قاما بعد ذلك بتأسيس مجموعة (الإسلاميين التقدميين)، وبقيت هذه المجموعة أشبه بالرابطة الثقافية، ولم تأخذ شكلاً تنظيمياً.

ونستطيع القول أن انفصال هذه المجموعة عن الحركة الأم كان لأسباب ثقافية محضة. حيث رفضت الالتزام بالفكر التقليدي للإخوان المسلمين، وعارضت هيمنة فكر سيد قطب على الحركة، وطالبت بمزيد من الانفتاح الثقافي والسياسي، واشتغلت بمراجعات شرعية وأصولية حول مسائل العقل والنقل والتقليد والمصلحة، وانحازت إلى أفكار اليسار الإسلامي في بُعديها الاقتصادي والسياسي.. ولكونها انفصلت عن حركة الاتجاه الإسلامي - حزب النهضة فيما بعد - مُبكراً، لم يتعرض أفراد هذه المجموعة للقمع السياسي الذي تعرضت له الحركة الإسلامية.. وقامت هذه المجموعة بعدد من المناشط الثقافية، من أهمها إصدار مجلة (١٥×٢١)، وتأسيس منتدى الجاحظ الثقافي.

إلا أن مجموعة (الإسلاميين التقدميين) لم تستمر على تماسكها سنين طويلة، حيث لم يبق منها في بداية التسعينيات سوى الحضور الثقافي والسياسي لبعض شخصيات هذه المجموعة، وفي مقدمتهم صلاح الدين الجورشي واحميده النيفر، اللذان بقي حضورهما في المشهد الثقافي نشطاً حتى اليوم.

ولأنه بقيت لمجموعة الإسلاميين التقدميين هويتهم الإسلامية الواضحة، فقد كان دائماً ما يقوم خصومهم باستخدام ورقة اتهامهم بأنهم مجرد (واجهة ثقافية) لحزب النهضة الإسلامي المحظور، وذلك سعياً لاستعداء السلطة عليهم.

* * * *

في الساعة الثانية والنصف كنت برفقة الأستاذ محمد القوماني أمام مقر (منتدى

الجاحظ)، وهو عبارة عن فيلا في ضاحية باردو على أطراف العاصمة. ويتكون المقر من بعض المكاتب الإدارية، وغرفة لأجهزة الحاسب والإنترنت، وقاعة واسعة لإقامة الندوات والدورات تكفي لما يقارب الخمسين شخصاً، وفي أحد أطرافها مكتبة كبيرة تحوي كثيراً من المراجع والكتب الفكرية والسياسية الحديثة.

وقد تأسس منتدى الجاحظ رسمياً عام ١٩٩٠م، حيث مُنح رخصة للعمل كجمعية ثقافية، ولكن بسبب الأحداث السياسية التي توالت بعد ذلك، توقف النشاط الثقافي للمنتدى بشكل كلي، ولم يبقَ منه سوى رخصته القانونية للعمل.. وفي بدايات الألفية الجديدة، وتحديداً في العام ٢٠٠٣م بدأ العمل لإعادة النشاط لهذا المنتدى، وتم تأسيس مقر للإدارة ولإقامة بعض الفعاليات الثقافية، وإنشاء موقع إلكتروني، وطباعة عدد من الإصدارات، والانتظام في إقامة الندوات والمحاضرات الفكرية التي استضافت عشرات المفكرين والباحثين من غالب الدول العربية، ويتم توثيق هذه الندوات في كرّاسات مكتوبة، وعلى أشرطة فيديو.

ورغم أن مؤسسي منتدى الجاحظ، ومن يتولون إدارته هم من مجموعة الإسلاميين التقدميين (صلاح الدين الجورشي رئيساً، واحميده النيفر نائباً للرئيس، ومحمد القوماني الكاتب العام)، إلا أن هذا المنتدى بات اليوم هو الواجهة الثقافية المُستقلة والوحيدة للإسلاميين في تونس، وغدا ملاذاً ثقافياً للشباب المتديّن المهموم بتكوين ثقافة لا توغل في تدمير هويته وتديّنه على مشجب الانفتاح والتواصل مع العالم.

عندما دخلتُ إلى المنتدى بصحبة الأستاذ محمد القوماني، تجولت في بعض مرافقة، وتحدثت مع عدد من الشباب العاملين به، وأكرموني بإهدائي عدداً من إصدارات المنتدى الورقية وعدداً من أقراص السي دي التي تتضمن تسجيلاً لعدد من الندوات. ثم دخلت إلى القاعة المُخصصة لإقامة الندوات، وإذ بها تحوي عدداً من الشباب والفتيات، يشاركون في دورة ثقافية يقدمها أستاذان جامعيان.. سلّمت عليهم، وشاركتهم الجلوس والحديث لبضع دقائق، والتقطت بعض الصور لفعاليات الدورة، ثم استأذنتهم بالانصراف رغبة في ألا أقطع عليهم برنامجهم الثقافي.

بعد قرابة الساعة والنصف من زيارتي شكرت الأستاذ محمد القوماني والشباب الناشطين في المنتدى على لطفهم وحسن ضيافتهم، وعلى ما منحوني إياه من بهجة وتفاؤل بعد أن رأيت مشهداً مختلفاً بعض الشيء عما كنت أراه في تونس. فمنظر الشباب الذي تبدو عليه سمات التديّن، والفتيات المُحجبات، وهم يتحاورون في شؤون ثقافية عميقة، بعمق إيمانهم بهويتهم وتراثهم وانتمائهم، لهو أمر يبعث على كثير من التفاؤل والأمل.

في الساعة الرابعة والنصف كنت برفقة الصديق عبدالرحمن باتجاه منزل الدكتور احميده النيفر.. وكنت قد التقيت الدكتور النيفر والأستاذ صلاح الدين الجورشي في الرياض قبل ثلاثة أعوام، وبصحبة عدد من الأصدقاء تحدثنا لساعات في كثير من الشجون الثقافية والسياسية.

وبمنزله الواقع في حي هادئ بالعاصمة تونس، استقبلنا د.النيفر بكل لطف، وجلسنا في غرفة مكتبه المكتظ بالكتب والمطبوعات والأوراق ـ تروق لي أجواء الغرف المُمتلئة بالكتب ـ وتحدثنا لدقائق عن لقائنا الأول في الرياض، وعن بعض الشخصيات التي التقوها في زيارتهم تلك.

في بداية لقائنا سألت د.النيفر عن بعض تفاصيل المشهد الثقافي التونسي، وعن الأجواء التي بدت لي متوترة في علاقة النُخَب الثقافية والأكاديمية ببعضها، فأكد لي حدوث بعض التوتر، وخصوصاً بعد الانفتاح النسبي الذي أبدته السلطة في تونس تجاه بعض المظاهر الدينية والشخصيات الإسلامية. وحدثني عن موجة القلق التي سادت أوساط النخبة العلمانية بعد زيارة وفد من علماء المسلمين على رأسهم الشيخ يوسف القرضاوي إلى تونس، للمشاركة في احتفالية اختيار مدينة القيروان عاصمة للثقافة الإسلامية للعام ٢٠٠٩م. حيث توالت ردود الفعل الغاضبة تجاه هذه الزيارة، وكتب العديد من العلمانيين مقالات اعتبروا فيها هذه الزيارة نكوصاً لتونس عن دورها الريادي والتنويري، وعودة للظلاميّة والتخلف، وأن القرضاوي يريد تحويل تونس من بلد الحداثة البورقيبية إلى بلد التطرف البنلادني (نسبة إلى بن لادن). وتُوّج هذا الغضب بكتابة عريضة وقعت عليه قرابة المائة شخصية ثقافية وسياسية،

تدين فيها قبول السلطة بزيارة القرضاوي الذي اعتبروه رمزاً للتطرف الإسلامي. وحملت العريضة تحريضاً صريحاً للسلطة على الشيخ القرضاوي لأنه كان قد انتقد الحالة الدينية بتونس في فترات سابقة.. وكنت قد سمعت أيضاً من بعض المثقفين، أن ثمة قلقاً في الأوساط العلمانية من مظاهر التدين التي بدت على زوج ابنة الرئيس، خشيةً من أن يؤدي ذلك إلى توسيع هامش النشاط الديني في تونس.

وتحدثنا أيضاً عن تجربة مجموعة الإسلاميين التقدميين، وعن الشخصيات الفكرية التي كان لها بعض الأثر في انفتاح هذه المجموعة، وعن فترات نشاطها وكمونها. وسعدت حين أهدى لي نسخة من العدد الأول من مجلة (١٥×٢١) التي أصدرتها المجموعة، ويشير شعارها إلى القرن الخامس عشر الهجري والقرن الحادي والعشرين الميلادي، وتحت الشعار كُتِب (مجلة للفكر الإسلامي المستقبلي). وقد صدر العدد الأول من هذه المجلة في نوفمبر ١٩٨٢م، ولكنها لم تنتظم في الصدور، حيث صدر منها عشرون عدداً فقط، وقد صدر العدد الأخير في يوليو من العام ١٩٩٠م. وكان مؤسسها ومديرها هو احميده النيفر، ورئيس تحريرها صلاح الدين الجورشي.

وتطرقنا أيضاً إلى الحديث عن البحث العلمي في الجامعات التونسية، وعن عدد من الأطروحات المميزة التي صدرت حديثاً.. وسألته كذلك عما يُثار إعلامياً بخصوص التبشير الشيعي في عدد من دول المغرب العربي، وعما إن كان له وجود حقيقي، أم هو لمجرد التخويف السياسي من الهيمنة الإيرانية. وقد أكد لي د.النيفر وجود مجموعات تشيّعت بالفعل في العقدين الأخيرين، وأنه استغرب من وجود بعض الباحثين والدارسين الأكاديميين الذين تشيعوا أيضاً، وإن كان ذلك يتم بشكل محدود جداً.

وبعد أن أمضينا قرابة الساعتين من الحديث، استأذنت د.احميده بالانصراف، وأعطيته الكارت الأخير الذي كان بحوزتي.

ولهذا الكارت قصة.. حيث انتهت كل كروتي الشخصية التي كانت بحوزتي في المغرب. وحين قدمت لتونس، لم يكن بحوزتي إلا كارت واحد فقط، فكنت

كلما طلب مني باحث أو مثقف كارتي الشخصي، مددت له هذا الكارت، وأعتذر له مبتسماً لكوني لا أملك غيره، فأطلب منه أن يتكرم بنقل الهواتف والإيميل، ومن ثم إعادته لي.

ولأن زيارتي للدكتور احميده النيفر تمت في يومي الأخير، حيث لا أظنني سألتقي بعده سوى بعض الأصدقاء، لذلك أقدمت على هذه الخطوة التاريخية، وقدمت له كارتي الأخير.. عبدالرحمن الذي كان يرقب تصرفي خلال الثلاثة أيام، قال لي بمكر: أووه ستقدم الكارت الأخير!! هذه تضحية كبيرة منك!.. أرجو ألا تتهور قبل أن تفكر ملياً في الأمر.. رددت عليه: لا تهتم.. فلا بد من اتخاذ قرارات شجاعة في هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا.. فنحن في زمن التضحيات الكبرى يا صديقي!.

أهداني د.احميده مشكوراً كتابيه (النص الديني والتراث الإسلامي) و(الخطاب الديني في الصحافة التونسية من ١٨٨١م ـ ١٩١١م). فشكرته على لطفه الغامر وكرمه، وحمّلته سلامي إلى الأستاذ صلاح الدين الجورشي الذي كان في رحلة عمل خارج تونس، وودعته على أمل أن نلتقي بإذن الله في أقرب فرصة قادمة.

وفي قرابة الساعة السابعة أوصلني الصديق عبدالرحمن مشكوراً إلى الفندق.

وقبل حلول الساعة التاسعة بدقائق خرجت من الفندق، وتوجهت إلى المطعم الإيطالي الذي بقيت أتردد عليه ـ هو والمطعم الهندي المجاور ـ طيلة أيامي السابقة. وكنت قد اتفقت مع الأستاذ خالد زغلول على أن نتناول طعام العشاء سوياً في هذا المطعم، بعد أن شكا لي من أنه لا يعرف مطعماً جيداً يستطيع أن يأكل فيه (حاجة يعرفها)، وأنه ظل طيلة أيام المعرض لا يجد إلا المطاعم المحليّة التونسية. فتطوعت حينئذٍ بإمداده بهذه المعلومة الثمينة ـ حين تحار في موضوع نوعية الطعام أثناء السفر، وتمتد حيرتك المشوبة بضجر لعدة أيام، ثم يرشدك أحدهم إلى مطعم تتذكر فيه تاريخك المجيد في الأكل، فستكون حينئذٍ ودون شك أمام (معلومة ثمينة)، واسألوني ـ. واتفقنا على أن نقضي ليلتنا سوياً في هذا المطعم الهادئ.

وبعد أن جلست بصحبة خالد زغلول في ركن هادئ وخافت الإضاءة، قلت له

ضاحكاً: (فينك يا عم من الأول، عاوزين ناس نعرف نتكلم معاهم بالبلدي، مش كلو بالفصحى زي ما نكون بمسلسل تاريخي!)، وبعد أن ضحك لذلك قال: (إي والله، أحياناً تكون بحاجة إلى مُعجم، خاصة لمّا تتكلم في المعرض مع ناس بُسطاء، ولا تستطيع أن تفهم لهجتهم المحلية بشكل جيد).

وخالد زغلول هو كاتب صحفي، ومالك لدار نشر (مصر المحروسة)، التي نشرت كثيراً من الكتب المُثيرة للجدل.. وهو صديق للصحفي المصري رضا هلال، مساعد رئيس تحرير جريدة الأهـرام، الذي اختفى فجأة وبصورة غامضة في ١١ أغسطس ٢٠٠٣م، ولم يظهر له أي أثر حتى اليوم!. ورغم مرور قرابة الستة أعوام على غيابه، ما زال سر اختفائه يُمثل لغزاً كبيراً في الوسط الصحافي المصري، وملفاً مُحرجاً للأمن. خاصة وأن المعلومات الأمنية تؤكد أنه لم يُغادر مصر على الإطلاق.

في هذا المطعم الهادئ، قضيت ليلتي التونسية الأخيرة في حديثٍ ممتع عن شجون الصحافة المصرية وشوارعها الخلفيّة، وعن عالم النشر والمكتبات في مصر والعالم العربي.. وفي الساعة الحادية عشرة بدأت بخلوتي الوجدانية الليلية سيراً على الأقدام، باتجاه ملاذي الأخير في ذلك الفندق الهادئ.

* * * *

طائرة المغادرة التي حَجزتُ عليها ستقلع في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً. وهذا يعني أنه يجب أن أتجه إلى المطار قرابة الساعة العاشرة صباحاً.

ولأنني كنت أنـوي البقاء في تونس ليومين إضافيين، لولا ظروفي الطارئة التي اضطرتني لتقليص أيام زيارتي إلى المغرب، واضطرتني أيضاً لأن أقضم من رحلتي التونسية يومين آخرين.. كنت قد خططت سابقاً للقيام بعدة أمور خلال هذين اليومين. من أهمها رؤية الصديق الدكتور سيد ولد أباه، المثقف الموريتاني المعروف، الذي كان سيقدم إلى تونس صبيحة يوم مغادرتي.

الصديق عبدالرحمن اتصل علي مساء السبت وقال لي إن د.سيد ولد أباه سيصل إلى تونس صباح الأحد، وإنه حريصٌ على أن نلتقي - لطفاً منه - ولو لساعة صباحية.. لذا فهما سيتجهان إلى الفندق الذي أسكنه فور خروجهما من المطار. وربما سيصلان إليّ قرابة الساعة الثامنة صباحاً، وهذا يعني أنه سيكون أمامنا ساعتان كاملتان للالتقاء والحديث.

والدكتور سيد ولد أباه يُعد اليوم من أبرز متخصصي الفلسفة في العالم العربي، وهو يحظى بمكانة مرموقة عند عدد من كبار المفكرين الذين يعرفون مقدار تمكنه من فهم دقائق الفلسفة الحديثة بروادها ومدارسها ونظرياتها وتحولاتها. كما أنه يُعد من المثقفين المعتدلين في موقفهم من التراث الإسلامي، المتصالحين مع هويتهم وتاريخهم.. ولكونه قد حاز على (دكتوراه الفلسفة) من الجامعة التونسية، لذا هو يُعد في تونس من أساتذة الفلسفة المُحافظين، وممن يملكون علاقات جيدة مع عدد من رموز الظاهرة الإسلامية.. وهو يعمل حالياً أستاذاً للفلسفة في جامعة نواكشوط بموريتانيا.

في الثامنة صباحاً نزلت إلى بهو الفندق بعد أن لملمت أشيائي المُبعثرة، وحزمت أمتعتي، وألقيت نظرة الوداع على شرفة غرفتي التي عشت عليها لحظات تأمل حميمة.. وبينما كنت أنهي مع موظف الاستقبال إجراءات الخروج، وإذ بالصديقين العزيزين يدلفان من بوابة الفندق.. وبعد دقائق السلام والترحيب والسؤال عن الأصدقاء، جلسنا على مقاعد البهو الوثيرة، وبدأت شِعاب الحديث تمتد في اتجاهات عديدة.

كنت حريصاً على أن أعرف تقييم الدكتور سيد ولد أباه المُختصر للمشروعات النقدية الحديثة التي أنتجها المفكرون العرب.. الجابري، أركون، الشرفي، جعيط، الأنصاري، العروي، طه عبدالرحمن، رضوان السيد، على حرب، فهمي جدعان، حسن حنفي، حسين مروة، وسواهم.. بعد ذلك تطرقنا إلى شيءٍ من تفاصيل المشهد الثقافي التونسي بسجالاته وتنوعاته، خاصة أن ولد أباه عاش بضعة أعوام في تونس.

أيضاً دخلت مع د.ولد أباه في نقاشٍ ساخن حول (الطريق إلى الحداثة في

العالم العربي). ففي الوقت الذي كنت أرى فيه أن التطور والتنمية في المجتمعات العربية لن تتم إلا عن طريق الحُريات والديمقراطية والإصلاح السياسي والمشاركة الشعبيّة، كان ولد أباه يرى أن التطور يمكن أن يتم عبر تبني الأنظمة السياسية القائمة لخيار التحديث، وأن الديمقراطية لن تكون قادرة على إنتاج الحداثة والتطور في المجتمعات العربيّة.

في الساعة العاشرة والربع التفت إليّ عبدالرحمن وأشار ساخراً إلى أن سخونة الحوار حول الحداثة لن ينتج عنها سوى فوات رحلة المغادرة.. عندها تنبهت إلى أن متعة الحديث مع الصديقين، المشوبة باسترخاء د.ولد أباه وظرافة تعليقات عبدالرحمن، أنستني التوقيت المحدد للذهاب إلى المطار.. ورغم حرصي على المغادرة بواسطة سيارة أجرة.. إلا أنني لم أجد أمام إصرار الصديقين على إيصالي إلى المطار سوى الشكر والامتنان المزوجين بسرور، لأنه ما زال أمامي بعض الوقت لمحاولة إقناع د.ولد أباه بوجهة نظري.

وبسبب زحام الطريق، وصلت إلى المطار مُتأخراً بعض الشيء، فشرعت مباشرة في التفتيش عن المكان المُخصص لتسليم الحقائب واستلام بطاقة صعود الطائرة. وبعد فترة تيهٍ أصرّ فيها د.ولد أباه على أن يواصل دفع عربة حقائبي، فيما عبدالرحمن يفتش هو الآخر عن القسم المعني بالرحلة المغادرة إلى الدار البيضاء لأن رحلة عودتي تمر بها، وصلت أخيراً للكاونتر المخصص، إلا أن سروري بـ (اكتشاف!) هذا الكاونتر القَصيّ، لم تكتمل حين طَلَبَت مني الموظفة المسؤولة بأن أفرغ من حقيبتي أربعة كيلوجرامات تزيد على الوزن المسموح!، وقد شرعت بذلك رغم الدهشة التي أبداها عمّال التحميل الذين أكدوا لي أن من عادة الموظفين التسامح حيال أربعة أو خمسة كيلوجرامات إضافيّة.. ولكن أحدهم استدرك وقال: يفعل ذلك الموظفون الرجال لا النساء!. (تذكر نصيحة تجنب الموظفات في الدوائر الحكومية والشركات!).

بعد السلام الحار ووداع الصديقين العزيزين، وأثناء وقوفي في الطابور المؤدي إلى القاعة الداخلية، بدأت أستعيد بعض اللقطات التي مرت بي.. استعدت كيف

كان د.سيد ولد أباه يدفع بسرعة عربة حقائبي ويتابعني من مكان لآخر، وكيف كان عبدالرحمن يدور وبيده تذكرة سفري متنقلاً بين الموظفين والأقسام سعياً وراء إتمام إجراءات السفر، إضافة لإصرارهما على مرافقتي إلى المطار رغم الإنهاك البادي عليهما.. تذكرت أيضاً ما فعله د.سعد الدين العثماني وكذلك عبدالإله بن كيران، وآخرون سواهم في رحلتي المغربيّة.. عند ذلك أدركتُ أنه لا شيء يستطيع أن يحقن في أوردتك جرعاتٍ من الود العميق تجاه إنسان، كما يفعل سلوك (التواضع)، والتصرف بعفوية وبساطة، بعيداً عن مكياج (الأهمية) الكاذب، والادعاء، والتصنّع، وربما الشعور المُبتذل بالعظمة!.

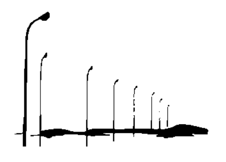
((أذكر أنه قبل خمسة أعوام، وفي الفترة التي عملت فيها بصحيفة الشرق الأوسط، سألني مدير مكتب الرياض باندهاش: لماذا لم تقم بإجراء أي حوارات مع شيوخ سعوديين، وخصوصاً أولئك الذين يملكون شعبية جماهيريّة.. قلت له: صدقني حاولت، ولكنني كنت أتوقف كل مرة في منتصف الطريق، بعد أن أشعر بوخزٍ شديدٍ في الكرامة، لأنك قد تحتاج ابتداءً - حتى يتم هكذا حوار - إلى (واسطة) تَستطيعُ من خلالها أن تحادث سكرتير فضيلة الشيخ!. ثم إن هذا الحوار لن يتم قبل أن يمر بخمس عشرة مكالمة هاتفيّة، والعديد من المتابعات والرجاء، بشكل يُشعرك وكأنك تسعى للحصول على مِنحة، أو طلبٍ للجوء السياسي!.. وبعد أن يتم الحوار (المكتوب لا الشفهي)، وتتم مراجعته تسعَ مرات من قِبل طلبة الشيخ! الذين سينصحونه بحذف هذه الكلمة حتى لا تُثير أحداً، وشطب تلك العبارة حتى لا تُزعج مسؤولاً، وإلغاء هذه الجملة حتى لا تؤول على غير مُراده.. حينئذٍ سيصل لك (حوار) فيه كلام كثيير، ولكن صاحبه لا يقول فيه أي شيء!!.. طَبعاً هذه المشكلة تحصل عادة عند الشخصيات ذات الشعبيّة التلفزيونية، التي قد تكون قلقة على صورتها عند جمهورها وعلى علاقتها بالمسؤولين، سواء كانوا شيوخاً أو مثقفين أو أدباء.. لذا فالشخصيات التي تكتب للنخبة، تمتاز - في الغالب - بأنها لا تعاني من عُقدة العَظمة هذه.. فيكفيك أن ترفع سماعة الهاتف، ليرد عليك المثقف بكل بساطة، وتُعرّفه بنفسك، وتتحدث معه لبعض الوقت، ثم تطلب منه إجراء الحوار)).

في رحلة العودة إلى الدار البيضاء صادف أن كان (هيثم) ابن مالك (المركز الثقافي العربي "نزار فاضل") معي على نفس الرحلة، ويجلس في المقعد المجاور لي. وكان هيثم هو المسؤول عن إدارة جناح المركز الثقافي في معرض تونس، وكنت ألتقيه دوماً في عدد من معارض الكتب العربية، لذا أمضينا وقتاً ممتعاً في الحديث عن شؤون النشر والتوزيع والطباعة، وعن علاقة الناشر بالمؤلفين، وعن معارض الكتب العربية وأيها أكثر قوة في المبيعات، وسوى ذلك من موضوعات.

* * * *

غادرت تونس نهار يوم الأحد، في رحلة عودة امتدت لأكثر من ست عشرة ساعة، أمضيتها بين الطائرات والمطارات، مروراً على الدار البيضاء، ثم القاهرة، قبل أن تصل إلى الرياض.

غادرت تونس بعد أن أمضيت أربعة أيام كانت مليئة بود الأصدقاء، وصخب الأفكار، وشغف المعرفة. ومكتظة بوهج الرّوح الذي ما فتئ يتدفق من غابات قَمَرت، وأزقة المدينة القديمة، وليالي سيدي بوسعيد.



الفهرس

أوراق مغربيّة..

أوراق تونسيّة..

ketab.me
Best Books

نواف القديمي

أوراق مغربية

يوميات صحفي في الأمكنة القديمة

بدأت أخشى أن أدمن كتابة اليوميات، وأن أتحول إلى ثرثار لا يمل من رواية كل ما يمرّ عليه من تجارب وقصص وحوارات وحكايات لا يفتأ يعيشها في ثنايا أيامه المُتتابعة.. لكن المشكلة تكمن في أنني أشعر بمُتعة استثنائية حين أدوّن شيئاً من تفاصيل الحياة المُثيرة.. ولا أظنني أرغب في التخلي عن هذا الإدمان الكتابي اللذيذ.. أيضاً لأنني عندما أكتب تلك التفاصيل، فأنا أسعى لالتقطها قبل أن يلتهمها غول النسيان، ثم أقوم ببروزتها وتعليقها على الحائط الزمني الممتد لحياتنا القصيرة.

حاولت في هذه اليوميات أن أرسم شيئاً من ملامح المشهد الثقافي والسياسي في المغرب وتونس ، وأن أشير إلى صفحاتٍ من دفاتر الحالة الإسلامية فيهما ، وأن أدوّن نزراً من التاريخ ، وبعضاً من الجغرافيا ، ولقطاتٍ من شريط حياة الإنسان المُنهك والبسيط ، ودواخله المثقلة بكثيرٍ من البؤس ، وقليلٍ من الأمل.



SR 25



وجوه WOJOOOH

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: 4918198
فاكس: تحويلة 108

رقم الإيداع: 5824 / 1430
ردمك : 5- 3319- 00 - 603 - 987

للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com